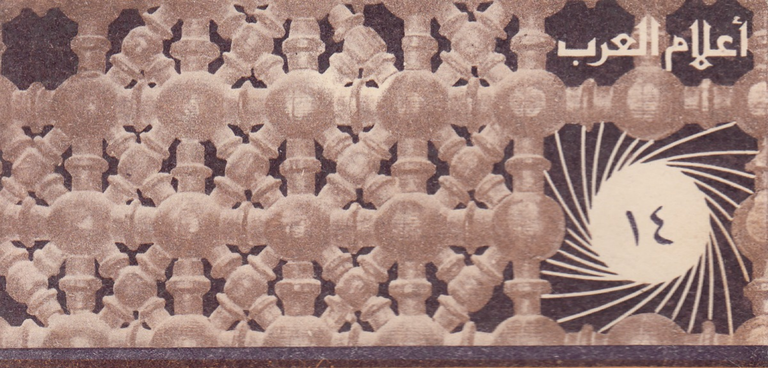


الظاهر بيبرس

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب - جامعة القاهرة

زارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
تأليف والترجمة والطباعة والنشر

أعلام العرب

١٤

الظاهر بيبرس

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب - جامعة القاهرة

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مقدمة

من الثابت علميا أن ثمة تطورا خطيرا طرأ على معنى العروبة منـذ القرنين الرابع والخامس للهجرة (العاشر والحادى عشر للميلاد) ؛ فلم تعد العروبة عندئذ تعنى مجرد الانتساب الى قبيلة معينة ، أو الاعتزاز بنسب عربى صريح ، وانما حدث عقب انتشار القبائل العربية فى الرقعة الفسيحة الممتدة من المحيط الى الخليج أن امتزج أبناء هذه القبائل بأهل البلاد الأصليين وتزاوجوا معهم واختلطت دماء الفريقين بعضها ببعض ، ونشأ عن هـذه العملية شعب عربى واحد يتكلم العربية ويدين معظمه بالاسلام . وصارت العروبة فى عهدها الجديد تعنى عروبة الحضارة والأحاسيس ، فكل من تكلم العربية وتأثر بحضارتها وتقاليدها فهو عربى ، وكل من أحس بعاطفة جياشة دفعته الى مشاركة العرب أفكارهم وشعورهم والعمل معهم فى الذود عن الوطن العربى والجهاد لانقاذه من الأخطار التى ألمت به ، فهو عربى .

ولعل الظاهرة التى تسترعى الانتباه هى : أن معظم من تزعموا حركة الجهاد فى ذلك الدور الجديد — منذ القرن الحادى عشر — لم تجر فى عروقهم دماء عربية خالصة ، ومع ذلك فانهم قاموا بدور بارز فى خدمة العروبة وميراثها — لا يقل عن الدور الذى قام به كبار قادة العرب الأوائل فى التاريخ . وحسبنا ما قام به السلاجقة

فى الجزيرة وآسيا الصغرى ، والأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، والمرابطون ثم الموحدون فى المغرب والأندلس .. حسبنا ما قام به هؤلاء جميعا من جهود فى الذود عن الوطن العربى ضد الأخطار التى هددته فى المشرق والمغرب جميعا .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقرر فى اطمئنان أن صلاح الدين الأيوبى كان بطلا من أبطال العروبة مع كونه كردى الأصل ، وأن الظاهر بيبرس كان علما من أعلام العرب مع أنه تركى المنبت . ويرى المؤرخ الفرنسى جاستون ڤييت أن ثمة تشابها واضحا بين هذين الرجلين بالذات — صلاح الدين والظاهر بيبرس — لا لأن كلا منهما كرس حياته وجهوده لفكرة الجهاد وانقاذ الوطن العربى فى الشرق الأدنى من الأخطار الكبرى التى ألمت به فحسب ، بل أيضا لأن كلا منهما بدأ كفاحه من نقطة واحدة هى توحيد الجبهة الداخلية فى مصر والشام قبل مواجهة العدو الدخيل .

وهكذا بدأ صلاح الدين فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر والظاهر بيبرس فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر جهودهما بالقضاء على الحركات الانفصالية التى ظهرت ضد كل منهما فى بلاد الشام ، حتى اذا ما اكتملت الوحدة وأصبح العرب فى الشرق الأدنى يمثلون بنيانا مرصوصا يشد بعضه بعضا ، أمكن عندئذ أن تبدأ عملية الجهاد على أساس سليم متكامل . واذا كان صلاح الدين قد نجح فى تأسيس دولة استمرت فى حكم مصر والشام قرابة قرن من الزمان ، فان الظاهر بيبرس هو المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام أيضا ، واليه يرجع الفضل

فى ابتكار الكثير من نظم تلك الدولة ووضع القواعد التى سارت عليها بعد ذلك طوال عدة قرون .

* * *

والملحوظ أن كثيرا من المؤرخين الغربيين — أمثال ميور — كانوا قساة فى حكمهم على بيبرس ، فلم يروا فيه الا رجلا عنيفا مغتصبا غادرا لا يحترم عهدا ولا يرقب فى مؤمن ، الا ولا ذمة . ولكننا مع اعترافنا بأن بيبرس كان قاسيا فى بعض تصرفاته ، الا أنه ينبغى أن نذكر حقيقية هامة هى أنه كان يتصرف بروح العصر الذى عاش فيه فعلا والجو الذى تشبع به تشبعا كاملا . فاذا أردنا أن نحكم حكمنا على بيبرس ، كان علينا ألا نحكم عليه بمعاييرنا نحن ، بل بمعايير عصره هو ، وهو العصر المضطرم بالفتن والمؤامرات والدسائس والعدوان . واذا كانت للبطولة فى نظرنا الآن معانيها السامية ومثلها العليا التى تتفق ومبادىء الشرف والأخلاق ، فان البطولة فى الجو الذى عاش فيه بيبرس لم تحفظ بمثل هذه المعانى ، اذ لم تكن هناك غضاضة فى أن يخرج البطل أحيانا عن قواعد المبادىء السابقة ، وهو مع ذلك يستثير اعجاب المعاصرين بشجاعته وفروسيته وقوته . وربما أخذ المعاصرون بمبدأ : ان الحسنات يذهبن السيئات فتناسوا لبيبرس زلاته فى سبيل ما اتصف به من شجاعة أرهبت أعداءه وأعداء العروبة ؛ أو ربما لم يجد المعاصرون فى تصرفات بيبرس شيئا غريبا غير مألوف . ومهما يكن من أمر ، فحسب بيبرس أن مؤرخى عصر المماليك أنفسهم — أمثال المقريزى وأبى المحاسن والعينى

وابن اياس — لم يروا فيه الا بطلا « أقام منار الاسلام والناس نيام » ؛ ووصفوه بأنه « كان من خير ملوك الاسلام » ، وأنه قضى حكمه فى « الذب عنهم من العدو المخذول » وأنه كان « ملكا شجاعا مقداما غازيا مجاهدا مرابطا خليقا بالملك » .

* * *

وانه لمما يسرنى أن أقدم للقارىء العربى صورة حية لعلم من أعلام العرب وبطل من أبطال العروبة والاسلام ، حرص الناس أجيالا عـديدة على التغنى بسيرته ، وما زالوا يحنون لسماعها والتحدث بها . وأرجو أن أكون قد وفقت بهذا العرض فى اعطاء القارىء فكرة واضحة عن الظاهر بيبرس وأعماله وحياته وبطولته ، فضلا عن رسم صورة عامة للوطن العربى فى الشرق الأدنى فى ذلك العصر .

والله ولى التوفيق .

سعيد عبد الفتاح عاشور

كلية الآداب بجامعة القاهرة فى { رمضان : ١٣٨٢ / فبراير : ١٩٦٣ }

الفصل الأول

عصر البطولة

التاريخ ملىء بالأبطال والبطولات ، ولكن قل أن نجد عصرا فى تاريخ أمة من الأمم فاض بروح البطولة وتميز بعدد ضخم من الأبطال كما نجد ذلك فى عصر سلاطين المماليك فى مصر .

والمعروف أن مصر شهدت فى العصور الوسطى عددا من الدول الاسـلامية المستقلة ، تعاقبت على حكمها ، أولها دولة الطولونيين التى قامت فى الحكم سنة ٨٦٨ م ومن بعدها دولة الأخشيديين سنة ٩٣٥ م ، ثم دولة الفاطميين سنة ٩٦٩ م . ولكن هذه الدول تتابعت جميعها فى ظل نظام متشابه من الحياة الهادئة المألوفة دون أن يسترعى النظر فى دراسة تاريخها حدث مفاجىء من نوع خاص أو ظهور بطل ليقوم بعمل غير مألوف ؛ وذلك اذا استثنينا ما صحب قيام الدولة الفاطمية فى مصر من اتخاذ المذهب الشيعى مذهبا رسميا للبلاد . ولكن حتى هذا التطور مع أهميته فانه لم يتخذ شكل انقلاب خطير فى التاريخ ، لأن دعاة الشيعة كانوا قد أعدوا له اعدادا كافيا ، فضلا عن أنه تطور داخلى امتدت

جذوره فى التاريخ الاسلامى الى عصور سابقة وظهرت آثاره فى كثير من أنحاء العالم الاسلامى قبل أن تظهر فى مصر .

وهكذا تعاقبت الدول علـى مصر منذ سـنة ٨٦٨ والأوضاع داخل البلاد كما هى ، يذهب حاكم ليحل محله آخر ، وتدول دولة لتقوم مقامها دولة أخـرى . وظل الحال على ذلك حتى أغار الصليبيون على الوطن العربى فى الشرق الأدنى فى أواخر القرن الحادى عشر ، وهو الأمر الذى جاء مصحوبا بتطور الأوضـاع الداخلية فى مصر تطورا أدى الى سقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية .

ولا شك فى أن قيام الدولة الأيوبية سنة ١١٧١ م جاء مصحوبا بازدياد أهمية الدور الذى نهضت به مصر فى الحروب الصليبية ، وبالتالى فقد أدى ذلك الى اتساع نطاق الفرصة لظهور أبطال جدد على مسرح التاريخ العربى . واذا كان صلاح الدين الأيوبى يعد الشخصية الكبرى التى سجل التاريخ بطولتها فى القرن الثانى عشر للميلاد ، فان أحدا من خلفاء صلاح الدين لم يستطع أن يواصل سياسته بالقوة نفسها ؛ بل سرعان ما انقسم أبناء البيت الأيوبى على نفسهم بعد وفاة صلاح الدين ، وعجز كل منهم عن حفظ كيانه ضد الخطر الصليبى فى الخارج ، والمنافسات بين أقاربه فى الداخل ؛ حتى اضطروا الى الاعتماد على المماليك للدفاع عن مصالحهم فى الخارج والداخل . ولم يلبث أن ازداد نفوذ هؤلاء المماليك فى مصر حتى انتهى الأمر بسقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك فى الحكم سنة ١٢٥٠ .

على أن دولة المماليك التى ورثت الأيوبيين فى حكم مصر والشام ، لم تكن من طراز الدول المستقلة السابقة التى تعاقبت على حكم مصر منذ سنة ٨٦٨ ؛ وانما كان لتلك الدولة من الظروف التى أحاطت نشأتها والأحداث الخارجية التى صحبت مولدها ، وطبيعة حكامها أنفسهم ونشأتهم ونظامهم وأسلوب حياتهم ؛ كان لدولة المماليك من كل ذلك ما أضفى عليها طابعا خاصا ، وجعل عصر سلاطين المماليك فىمصر عصرا بارزا بين عصور التاريخ العربى فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى . ولا أقل من أن نعرض عرضا سريعا خاطفا لتلك العـوامل المتباينة التى أكسبت عصر المماليك طابعه الخاص المميز الذى امتاز به فى التاريخ .

ذلك أنه أحاطت بنشأة دولة المماليك ظروف قاسية ، اذ ولدت تلك الدولة لتواجه مشكلتين كبيرتين كانتا فى حقيقة الأمر أكبر خطرين هددا الوطن العربى فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، وهما خطر الصليبيين وخطر المغول .

أما الصليبيون فكانوا قد ثبتوا أقدامهم فى بلاد الشام وأطراف العراق منذ أواخر القرن الحادى عشر للميلاد ، ومن ثم أخذوا يمدون نشاطهم الى مصر ووادى النيل جنوبا وفى بلاد الجزيرة شمالا . واذا كان الصليبيون قد استطاعوا تحقيق انتصارات عديدة فى الدور الأول من أدوار المعركة الصليبية فى الشرق الأدنى ، فان هذه الانتصارات لم يكن مرجعها قوة الصليبيين أنفسهم بقدر ما كان مرجعها الى انحلال القوى الاسلامية وتفككها وعدم ترابطها . وهكذا حتى تمت الوحدة بين شمال العراق والشام

ومصر على عهد نور الدين محمود ، مما مكن صلاح الدين من انزال ضربته الكبرى بالصليبيين فى حطين سنة ١١٨٧ .

وعنــدئذ بدا فى وضــوح أن ميزان القــوى بين المسلمين والصليبيين قد أخذ يتحول لصالح المسلمين ، رغم كل ما بذله الصليبيون — ومن ورائهم الغرب الأوربى — من جهود .

ولكن اذا كان صلاح الدين قد نجح فى استرداد كثير من مدن الصليبيين ومعاقلهم بالشام ، فان خلفاءه كانوا أضعف من أن يواصلوا سياسة الجهاد بمثل جهوده وقوته ، بسبب ما قام بين أبناء البيت الأيوبى من انقسامات . لذلك ظل الصليبيون رابضين فى عكا وطرابلس وأنطاكية وغيرها من المدن الكبرى بالشام ؛ بل انهم واصلوا جهودهم فى النصف الأول من القرن الثالث عشر لغزو مصر ذاتها فاستولوا على دمياط سنة ١٢١٩ ، سنة ١٢٤٩ وأوغلوا فى الدلتا حتى المنصورة .

* * *

ووسط هذا الصراع القائم بين أهل البلاد من ناحية والدخلاء المعتدين من ناحية أخرى ، ولدت دولة المماليك ليجد سلاطين تلك الدولة أنفسهم أمام مسئوليات ضخمة ، هى تطهير الوطن العربى فى الشرق الأدنى من الدخلاء الغاصبين وتأمين مصر من الغزاة الباغين ، ثم طرد البقايا الصليبية من الشام لتعود الأرض الى أهلها وأصحابها الحقيقيين . ولم يتقاعس سلاطين المماليك عن النهوض بتلك المسئوليات الضخمة ، فواصلوا الجهاد . ولم يكتفوا بطرد آخر البقايا الصليبية من الشام ، وانما استأنفوا الحرب ضــد

الصليبيين فى بقية قواعدهم بالشرق الأدنى : فى أرمينيا الصغرى ، وفى قبرص ، وفى رودس .

وطوال تلك الحروب العنيفة التى شنها المماليك على الصليبيين دون هوادة أو رحمة ، أظهر فرسان المماليك وسلاطينهم من ألوان البطولة وضروب الشجاعة ما أصبح مضرب الأمثال فى التاريخ .

* * *

على أن حرب الصليبيين لم تكن المجال الوحيد الذى أتيح للماليك ليظهروا فيه بطولتهم وقوتهم ؛ كما أن الخطر الصليبى لم يكن الخطر الفريد الذى ساعد على اكساب ذلك العصر طابع البطولة الذى ميزه بين عصور التاريخ المصرى فى الحقبة الوسيطة . ذلك أن قيام دولة المماليك جاء مصحوبا بخطر آخر جديد لاح فى سماء الشرق الأدنى ، وهدد البلدان العربية الاسلامية ، تهديدا فاق تهديد الصليبيين أنفسهم ، وأعنى بذلك خطر المغول . واذا كان هولاكو قد نجح فى اقامة دولة ثابتة القواعد للمغول فى فارس ؛ دان لها بالطاعة بقايا الخوارزمية وسلاطين سلاجقة الروم ؛ فان معنى ذلك أن دور الخلافة العباسية لابد أنه آت عن قريب .

وهكذا وقعت البلدان الاسلامية فى الشرق الأدنى فى محنة كبرى بعد أن طوقها المغول من الشرق والصليبيون من الغرب ، الأمر الذى جعل المؤرخ المعاصر ابن الأثير يرسل زفرة حزينة تعبر عما شعر به معاصروه من ألم وأسى ، فيقول ان المسلمين منذ أن بعث نبيهم عليه الصلاة والسلام لم يمروا بمثل تلك المحنة .

وكان أن غزا المغول العراق سنة ١٢٥٧ واستولوا على بغداد فى أوائل العام التالى (فبراير ١٢٥٨) ، فأشعلوا النار فى دورها وقتلوا الآلاف من أهلها وعلى رأسهم الخليفة العباسى نفسه . وفى ذلك الوقت الذى اهتز العالم الاسلامى أجمع لسقوط بغداد ومقتل الخليفة ، قامت مصر لتدرأ عن العالم العربى خطر المغول ، وأخذ الجيش المصرى يلقى بجحافله أمام هؤلاء المغيرين فينزل بهم الهزائم المتلاحقة تارة فى عين جالوت ، وطورا عند حمص ، أو أطراف العراق .

* * *

وثمة عامل آخر هام ساعد على اكساب عصر سلاطين المماليك أهمية خاصة فى التاريخ ، ومكن لأولئك السلاطين من البقاء والاستمرار ومن تنفيذ مشاريعهم الضخمة سواء أكانت حربية أم عمرانية ، وأعنى بهذا العامل ازدياد أهمية مصر بصورة لم يسبق لها مثيل فى النشاط التجارى بين الشرق والغرب : ذلك أن حركة توسع المغول ترتب عليها وقف طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، سواء أكانت عن طريق الخليج — بغداد ، أم عن طريق فارس وشمال العراق فالبحر الأسود ، وبذلك لم يبق آمنا من طرق التجارة بين الشرق والغرب سوى طريق البحر الأحمر ومصر . وسرعان ما أفاد سلاطين مصر من تلك الفرصة ، فاحتكروا تجارة الشرق وجمعوا من وراء ذلك أموالا وثروات ضخمة أضفت عليهم وعلى دولتهم مسحة فريدة من الأبهة والبسطة والبذخ ، ومكنتهم من أن يحيوا حياة مترفة عكست ضوءا ساطعا على نشاطهم داخل

البلاد وخارجها . وقد أفاض المقريزى فى وصف الثروة التى تمتع بها المماليك ، فوصف قصـور الأمراء وما احتوت عليه من تحف وكنوز ، حتى ان سـعر الذهب بالديار المصرية انخفض عقب نهب قصور أحد الأمراء سنة ٧٤٢ هـ (١٣٤١ م) لكثرة ما وصل من الأنهاب الذهبية الى أيدى الناس [١] . هذا فضلا عما توافر فى المراجع المعاصرة من اتصاف الحياة فى مصر عـلى ذلك العصر بالاحتفالات الفخمة والأسمطة الفاخرة والملابس الثمينة والحلى النادرة ..

ولم يقتصر ذلك البذخ على الطبقة الحاكمة من المماليك ، وانما تنافس الوزراء والكتاب والتجار فى تشييد القصور والتفنن فى زخرفتها والتأنق فى تأثيثها حتى غدت مضرب الأمثال ومحورا لكثير من القصص المعاصر . وسرعان ما وصلت أخبار تلك الثروة الى بقية البلدان العربية المجاورة ، فهرع كثير من أهلها — وبخاصة من أهل المغرب — الى مصر لما بلغهم « عن أحوال مصر والقاهرة من الترف والغنى ! » [٢] وبذلك كانت تلك الثروة عاملا جديدا من العوامل التى أكسبت دولة المماليك طابعا خاصا مميزا .

* * *

ولا يخفى علينا أن طبيعة نظام المماليك وأصلهم ونشأتهم كان لها أثرها الواضح فى ابراز ذلك العصر بين عصور التاريخ

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٣ ص ١١٧ — ١١٨ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٥ .

المصرى . فالمماليك كانوا طبقة عسكرية ممتازة سيطرت على البلاد وأهلها وكان لهم فى طريقة تربيتهم وأسلوبهم الخاص فى الحياة ما أضفى على حكمهم نوعا من الغرابة والأهمية .

ثم ان هؤلاء المماليك انتسبوا غالبا الى أساتذتهم ، أى سادتهم الذين اشتروهم من التجار أو حصلوا عليهم بطريقة أو بأخرى . فالمملوك الأشرفى ينسب الى أستاذه الأشرف والمملوك الظاهرى ينسب الى أستاذه الظاهر .. وهكذا . وربما نسب المملوك الى تاجره الذى جلبه وباعه ، أو نسب الى قيمته التى اشترى بها اذا كانت هذه القيمة ضخمة تستحق الفخر والمباهاة لما تدل عليه من عظيم المواهب التى توافرت فى المملوك والتى جعلته يباع بذلك المبلغ الضخم مثل قلاون الألفى الذى اشترى بألف دينار [1] .

فاذا اشترى السلطان أو الأمير مملوكا جديدا فانه كان يعنى به عناية فائقة ، ويهتم بتعليمه أحكام الديانة الاسلامية وآدابها فضلا عن الخط والقرآن ،وذلك على يد فقيه خاص .وعندما يكبر المملوك يتلقن فنون الحرب واستخدام النشاب « وركوب الخيل وأنواع الفروسية » . وهكذا يتنقل المملوك فى أدوار معينة ، دورا بعد آخر حتى يتحرر ويصبح فى زمرة الأمراء . فاذا وصل المملوك الى مرتبة الامارة أصبح « سلطانا مصغرا » على قول القلقشندى [2]

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكر ج ٩ ص ١٤٢ (مخطوط) .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٠ .

ومعنى ذلك أن يكون له اقطاع من الأرض يعيش منه ، ويسمح له بدوره فى امتلاك عدد من المماليك يتناسب مع درجته .

* * *

وبعد ، فهذه صورة عامة موجزة لأهم ملامح دولة المماليك فى مصر والشام ، والأوضاع الخارجية والداخلية التى أحاطت بتلك الدولة لتكسبها طابعها الخاص المميز وسط الدول الاسلامية التى تعاقبت فى حكم مصر فى العصور الوسطى . ولعله من الواضح الآن كيف ساعدت تلك الأوضاع المتباينة على ظهور المماليك وامدادهم بالفرص المواتية لابراز نشاطهم ، لا فى الميدان الحربى وحده ، وانما فى الميادين الانشائية والاجتماعية والدينية والاقتصادية وغيرها ، مما جعل ذلك العصر فى مصر يتصف بالنشاط والحركة الدائمة فى الداخل والخارج .

وفى وسط الأحداث السريعة المتلاحقة التى صحبت قيام دولة المماليك ، برز السلطان الظاهر بيبرس ليقوم بدور البطل المؤسس الحقيقى لتلك الدولة .

الفصل الثاني

ظهور بطل

من الظواهر الأساسية في التاريخ أن كثيرا من الأبطال والحكام الذين لم ينحدروا من بيوت ملك وحكم ولم يصلوا الى ما وصلوا اليه عن طريق الوراثة ، امتاز تاريخهم فى أدواره الأولى بالغموض والابهام وتضارب الروايات حول أصلهم ونشأتهم . وربما أحس المؤرخون — بعد فوات الأوان — بتلك الحلقات المفقودة فى حياة البطل الذى يؤرخون له ، فراحوا ينسجون القصص الخيالى حول نشأة ذلك البطل ويحاولون فى كثير من الحالات أن ينسبوا اليه مزيدا من الأعمال الخارقة فى طفولته ليثبتوا أن أمارات البطولة والشجاعة والنجابة كانت ملازمة له منذ ولادته ! وأنه على الرغم مما صادفه فى حياته الأولى من عقبات وعدم تقدير فان ارادة الله ومشيئة القدر تغلبت دائما حتى حققت له الظهور .

وليست هناك أية غرابة فى هذه الظاهرة التاريخية التى يصادفها دائما المشتغلون بالتاريخ ، لأن التـاريخ فى العصـور القديمة والوسطى وشطر من الحديثة يكاد يكون مقصـورا على تاريخ الملوك والحكام والأعيان ، فاذا ولد طفل فى قصر اهتم به المؤرخون

منذ مولده — بل ربما قبل مولده — وأفاضوا فى نسبه وحسبه وعظيم مواهبه ؛ أما اذا كان مغمورا فان انسانا لا يشعر به ولا يتعرض له كاتب أو مؤرخ ، حتى اذا ما أصاب نصيبا من الدنيا حاول المؤرخون عندئذ أن يسدوا الثغرة التى أحاطت بنشأته ، فاذا أعوزتهم الحقائق لجأوا الى الخيال والأساطير . وحسبنا أن عناوين كتب التراجم والتاريخ فى تلك العصور ينصب معظمها على وفيات الأعيان وتاريخ الملوك ، أما الشعوب وعامة الناس فليس فيها ما يهم المؤرخ واذا تعرض لها بالاشارة فان ذلك يأتى عرضا . وللمؤرخ أبى المحاسن عبارة يقولها عن أحد الأفراد « وقد أضربنا عن شرح ما حدث له لأنه لم يكن من أعيان الناس لتشكر أفعاله أو تذم !! » [1] .

واذا كان هذا هو حال التاريخ مع عامة الناس فى الظروف الطبيعية ، فماذا يكون شأنه مع المماليك الذين ذكرنا أصلهم ونشأتهم من قبل ، وكيف ننتظر من أمثال ابن واصل والنويرى والمقريزى وأبى المحاسن — رغم ما عرفوا به جميعا من دقة وأصالة فى البحث — أن يذكروا لنا شيئا ثابتا محددا عن مولد هذا السلطان أو نشأة ذلك الأمير من أمراء المماليك ؟ لا شك فى أن هؤلاء المؤرخين والكتاب كانوا معذورين اذا تضاربت أقوالهم واختلفت فى نشأة أحد المماليك ، لأنهم لم يجدوا أمامهم سوى الروايات الشفوية التى تتعرض للتغيير والتبديل بانتقالها من فم لآخر .

(١) ابو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٤٤ .

وعلى ذلك لا ننتظر اجماعا على رواية واحدة عن نشأة بيبرس فى كتب التاريخ المعاصرة ، وان كان أغلب هذه الكتب قد اتفقت على أمر واحد ، هو أنه كان تركى الجنس ، من مواليد بلاد القفجاق — فى جنوب روسيا — وأنه قضى فى تلك البلاد الدور الأول من طفولته ، حتى أغار عليها التتار حوالى سنة ١٢٤٢ للميلاد ، وعندئذ كان بيبرس من جملة الأسرى فاشتراه أحد تجار الرقيق فى سيواس . ويبدو أن بيبرس تنقل بعد ذلك فى صحبة تجار الرقيق حتى وصل — ومعه زميل له — الى حماه حيث عرضهما التاجر على صاحبها الملك المنصور . ويروى كل من ابن واصل وأبى المحاسن رواية طريفة ، خلاصتها أن الملك المنصور صاحب حماه كان صغير السن عندئذ ، وانه اعتاد عندما يشترى رقيقا أن يستشير والدته ، فلا يشترى من الرقيق الا من أشارت بابتياعه . وكان أن قام الملك المنصور بعرض الغلامين — بيبرس وزميله — على أمه لأخذ رأيها ، فرأتهما من وراء ستار ، وعندئذ سمحت بشراء زميل بيبرس فقط . أما بيبرس نفسه فقد أشارت اليه وقالت لابنها : « هذا الأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة ، فان فى عينيه شرا لائحا !! » [1] .

وكان أن انتهى الأمر بأن عدل الملك المنصور صاحب حماه عن شراء بيبرس ورفيقه ، فحملا الى دمشق حيث بيع بيبرس بثمانمائة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب ج ٢ ورقة ٤٤٠ (مخطوطة مصورة بدار الكتب) ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٩٤ — ٩٥ .

درهم ؛ ولكن الذى اشتراه لم يلبث أن رده الى التاجر لأنه اكتشف بياضا فى احدى عينيه ! . ويبدو أن بيبرس انتقل مرة أخرى — ومعه زميله — الى حماه حيث كان الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار — وهو أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر — معتقلا ؛ فلما سمع ذلك الأمير بقصة المملوكين الصغيرين — بيبرس وزميله — اشتراهما وهو فى معتقله . ولهذا فقد نسب بيبرس الى أستاذه الأول ، فأصبح يعرف باسم بيبرس البندقدارى [1] . وقد ظل بيبرس ملازما سيده بقية مدة اعتقاله فى حماه ، حتى اذا ما أفرج عن الأمير علاء الدين البندقدار انتقل بيبرس معه الى مصر .

* * *

والمعروف عن الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر (١٢٤٠ — ١٢٤٩) أنه توسع فى الاعتماد على المماليك بعد أن تخلى عنه الأكراد وغيرهم من طوائف الجند . لذلك أفرط الصالح أيوب فى شراء المماليك ، وبذل الأموال الكثيرة لتجار الرقيق ، ونسب اليه مماليكه فصاروا يعرفون بالصالحية .

ولم يكد الصالح أيوب يعلم بأن أحد أمرائه — وهو الأمير علاء الدين البندقدار — قد حصل على مملوك صغير اسمه بيبرس

---

(١) البندقدار نسبة الى البندق ، وهى كرات صغيرة تستخدم فى صيد الطيور وتصنع من الحجارة أو الرصاص . وكان البندقدار يحمل جراوة البندق ـ أى كيسه ـ خلف السلطان أو الأمير . (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٨) .

تبدو عليه علامات الفطنة والنجابة ، حتى طمع الملك الصالح فى الاستحواذ على ذلك المملوك الجديد . وصادف أن صادر الملك الصالح الأمير علاء الدين واستولى على ممتلكاته ومماليكه ، فكان بيبرس ضمن من استولى عليهم الملك الصالح ؛ وصار من مماليكه البحرية الذين أسكنهم قلعة الروضة فى (بحر) النيل .

وبانتقال بيبرس الى ملكية السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، دخل المملوك الصغير دورا جـديدا واضحا من أدوار حيـاته . ولم يلبث الصالح أيوب أن أعتق ذلك المملوك ، مما أتاح الفرص أمام بيبرس لكى يبرهن على كفايته وشجاعته فى ميادين أوسع ؛ حتى اختاره الصالح أيوب مقدما على طائفة الحمدارية « لما رأى من فطنته وذكائه » (١) .

وجدير بالذكر أن السلطان الصالح أيوب كان له مملوك آخر اسمه مطابق لاسـم (الظاهر) بيبرس ، هو الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى الذى أشار اليه المؤرخ أبو الفدا أكثر من مرة . وكان هذا الأمير الأخير من مماليك الكامل الأيوبى ، ثم آل الى الصالح أيوب ، ولكنه كان « أكبر من الظاهر بيبرس وأقدم » ، ولا يتعدى الأمر بين الرجلين أكثر من التوافق فى الاسم والشهرة (٢) . ولعل هذا التطابق الشديد بين اسمى الرجلين هو

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٩٥ . والجمدار هو الموظف الذى يقوم بالباس السلطان أو الأمير ثيابه : القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٥٩) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢ .

الذى أوقع بعض الكتاب المحدثين فى الخطأ فقالوا عن الظاهر بيبرس انه اشترك فى موقعة غزة الأولى سنة ١٢٣٩ ثم فى موقعة غزة الثانية سنة ١٢٤٤ (١) . والحقيقة أن الذى أسهم فى هاتين الموقعتين هو الأمير بيبرس البندقدارى الكبير ، وكانت أمه خوارزمية وكذلك زوجته فانضم الى الخوارزمية وخان سيده الصالح أيوب سنة ١٢٤٥ ، حتى تمكن الصالح من انزال الهزيمة بالخوارزمية فى مايو سنة ١٢٤٦ وعندئذ قبض على الأمير بيبرس الخائن وأعدمه (٢) .

أما بطلنا بيبرس فقد علا نجمه بسرعة عند الصالح أيوب « وترقى فى خدمته واستفاد من أخلاقه » . فلما مات السلطان الصالح نجم الدين أيوب فى أواخر سنة ١٢٤٩ ، قام بيبرس فى خدمة ابنه تورانشاه . غير أن وفاة الصالح أيوب جاءت فى وقت عصيب ، اذ كان لويس التاسع ملك فرنسا قد دهم مصر على رأس الحملة الصليبية السابعة واحتل دمياط وزحف على المنصورة ؛ فى الوقت الذى كان تورانشاه نفسه بعيدا عن مصر فى حصن كيفا بأطراف العراق . وهكذا تأزم الموقف فى مصر فجأة ، فالبلاد أصبحت بدون سلطان بعد وفاة الصالح أيوب ،

---

(١) وممن وقعوا فى هذا الخطأ المؤرخ المعروف جروسيه ، أنظر : Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 414.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٥٩ (مخطوط) ؛ والمقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٥ .

والصليبيون أوغلوا فى الدلتا فى طريقهم الى القاهرة ؛ وصارت مقاليد الأمور بيد شجر الدر — زوجة الصالح أيوب — والأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، أتابك العسكر .

وكانت الظروف كلها مواتية للصليبيين ، فهاجموا معسكر المسلمين فى فبراير سنة ١٢٥٠ ، وسقط الأمير فخر الدين قائد الجيش نفسه قتيلا فى المعركة ، وعندئذ اندفع الصليبيون نحو المنصورة واقتحموها ، وانسابوا فى أزقتها حتى « كادت الكسرة أن تكون » . ولكن الله تدارك المسلمين بلطفه ، فخرجت طائفة المماليك البحرية مع من خرج من المصريين لقتالهم « وفيهم ركن الدين بيبرس البندقدارى الذى تسلطن بعد هذه الأيام ، فحملوا على الفرنج حملة زعزعوهم بها »[١] . وهكذا تبدلت الهزيمة الى نصر،فوقع كثير من الصليبيين قتلى فى أزقة المنصورة، وحاول من نجا الفرار ، ولكن المسلمين لحقوا بهم قرب فارسكور حيث أجهزوا عليهم وأسروا لويس التاسع نفسه ومجموعة من كبار أمرائه وقادة جيشه .

* * *

ويثبت التاريخ دائما أن هذا النوع من الانتصارات التى يكون الفضل فيها لفرد معين أو طائفة بذاتها ، لابد أن يعقبها ازدياد نفوذ ذلك الفرد أو تلك الطائفة ازديادا يهدد مصالح الحكام الشرعيين للبلاد وحقوقهم . وكان هذا ما حدث عقب واقعة

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥٠ .

فارسكور وأسر لويس ، اذ أحس المماليك البحرية بأهميتهم وقوتهم في البلاد . وفى الوقت الذى قويت فيه شوكة البحرية ، وصل تورانشاه ابن الصالح أيوب الى مصر ، وكان قد تلقب بلقب المعظم بعد أن نودى به سلطانا ؛ فعز على تورانشاه أن يجد في البحرية قوة تقاسمه السلطان بل تفوقه في النفوذ .

وهكذا ساءت العلاقات بين السلطان المعظم تورانشاه من ناحية وزعماء المماليك البحرية — وعلى رأسهم الأمير ركن الدين بيبرس — من ناحية أخرى . ويروى المؤرخ أبو المحاسن أن تورانشاه كان اذا سكر في الليل جمع ما بين يديه من الشموع وصفّها أمامه ، ثم أخذ يضرب رءوسها بالسيف حتى تنقطع واحدة بعد أخرى وهو يقول « هكذا أفعل بالبحرية ! » [1] . ولا شك في أن هذا الوضع أثار مخاوف زعماء البحرية ، فأوجسوا خيفة من غدر السلطان الجديد بهم ، وبدأوا يفكرون في التخلص منه قبل أن يتخلص هو منهم .

ثم ان الخوف من تورانشاه جاء مصحوبا بالكراهية الشديدة له نظرا لاحتجابه عن أمرائه ، وتهالكه على الفساد والملذات ، وعبثه بمماليك أبيه وحظاياه . وليت تورانشاه حفظ الجميل لزوجة أبيه شجر الدر التى صانت له حقه في الملك عقب وفاة أبيه وأرسلت اليه تستدعيه على عجل من حصن كيفا ، وانما أرسل اليها — وكانت قد رحلت الى بيت المقدس — يتهددها ويتهمها بأنها

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧١ .

أخفت مال أبيه . وكان أن « كاتبت المماليك البحرية بما فعلته فى حقه من تمهيد الدولة وضبط الأمور حتى حضر وتسلم المملكة ، وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عنـدها ؛ فأنفوا (البحرية) لها وحنقوا من أفعال السلطان (تورانشاه) » [1] .

وكان أن استقر رأى زعماء البحرية على قتل تورانشاه ؛ فلم يكد ينزل بناحية فارسكور سنة ١٢٥٠ حتى بادره الأمير ركن الدين بيبرس فضربه بالسيف ضربة أطارت أصابع يده ، ثم تبعه بعـد ذلك بقية الأمراء . وتروى المراجع أن تورانشاه أخذ عندئذ على غرة ، ففر الى برج خشبى كان قد أعد للاقامة فيه ، ولكن بيبرس ومن معه من الأمراء تبعوه وأشعلوا النار فى البرج . وأخـيرا لم يجد تورانشاه ملجأ سوى نهر النيل ، فألقى بنفسه فى الماء وجد فى السباحة محاولا النجاة . ولكن نشاب البحرية لاحقته ، كما سبح بعضهم خلفه فى الماء وقطعوه بالسيف وهو يصـيح « ما أريد ملكا ! دعونى أرجع الى الحصن (كيفا) يا مسلمين ! ما فيكم أحد يصطنعنى ويجيرنى !! » . وعلى هذا الوجه انتهى أمر تورانشاه ، فمات جريحا حريقا غريقا ، على قول المقريزى [2] .

وكان تورانشاه آخر سلاطين بنى أيوب فى مصر ، اذ استقر رأى المماليك البحرية بعد مقتله على تولية زوجة أبيه شجر الدر ، التى لم تكن من سلالة بنى أيوب ، بل على العكس كانت من ناحية الأصل والنشأة أقرب الى المماليك ، مما جعل المقريزى

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥٨ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٠ .

يعتبرها « أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك » . على أن شجر الدر كانت أضعف من أن تستطيع الصمود فى وجه البحرية وزعيمهم بيبرس ؛ هذا الى أنها كانت قد منّت زعماء البحرية بالوعود اذا هم نجحوا فى مقتل تورانشاه ، ويقال انها كانت قد أرسلت اليهم تمنيهم وتقول « اقتلوا تورانشاه وعلىّ رضاكم ». لذلك لم تكد شجر الدر تتولى حكم مصر حتى أجزلت العطاء للبحرية وعملت على استرضائهم وكسب مودتهم . على أن قيام امرأة فى الحكم كان أمرا لم يألفه المسلمون ، فى الوقت الذى لم يرض بنو أيوب بالشام عما تم فى مصر من نقل السلطة الى أيدى المماليك . لذلك اجتمع زعماء البحرية — أقطاى وبيبرس وبلبان وسنقر — واتفقوا على أن تتزوج شجر الدر من عز الدين أيبك — أتابك العسكر — على أن تتنازل له عن السلطنة . ثم عاد زعماء البحرية بعد قليل وفكروا فى اقامة أحد أبناء البيت الأيوبى شريكا لأيبك فى الحكم ، وذلك لتخدير الأيوبيين الغاضبين فى الشام ، واختاروا لذلك الأشرف موسى الأيوبى الذى كان عندئذ فى السادسة من عمره . وفى جميع هذه الأحداث والتطورات يرد اسم الأمير ركن الدين بيبرس بوصفه أحد زعماء البحرية الموجهين لمصائر الأمور فى مصر فى تلك الفترة القلقة من تاريخها (١) .

* * *

على أن محاولات المماليك فى مصر لاسترضاء بنى أيوب فى

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٧٤ — ٣٧٧ (مخطوط) .

الشام لم تفلح ، فاستولى الناصر يوسف الأيوبى على دمشق ، وخرج منها يريد غزو مصر ؛ وعندئذ لم يجد المعز أيبك قوة أمامه يستعين بها سوى البحرية ، فعمل على استرضائهم بشتى الوسائل . وبفضل معونة البحرية تمكن أيبك من انزال الهزيمة بالأيوبيين عند العباسة بالشرقية سنة ١٢٥٠ . وهكذا جاء هذا النصر الجديد ليقوى من شوكة البحرية ، فبغوا وأنزلوا بالناس ضررا عظيما . حتى قـــرر المقريزى أنه « لو ملك الفرنج ما فعلوا فعلهم » . ولا أدل على ازياد نفوذ زعمـــاء البحرية ، وظهور نفوذ بيبرس بالذات — من أن المقريزى اختتم كلامه عن حوادث سنة ٦٤٨ هـ بالاشارة الى أن هذه السنة انتهت « والمعتمد عليه فى أمور الدولة من البحرية ثلاثة أمراء : وهم الأمير فارس الدين أقطاى ، وركن الدين بيبرس البندقدارى ، وسيف الدين بلبان الرشيدى » (١) .

وسرعان ما ضاق السلطان المعز أيبك بالبحرية ، بعـــد أن « كثر تعنتهم واستطالتهم » ؛ فى الوقت الذى بدأ خطر المغول بزعامة هولاكو يهدد العراق . لذلك أسرع أيبك بتصفية الموقف بسرعة ، فطرد شريكه الصغير الأشرف موسى الأيوبى من السلطنة ، وعقد صلحا مع الناصر يوسف الأيوبى صاحب الشام ، وأخضع الثورة التى قام بهـــا الأعـــراب فى الشرقية والبحيرة والغربية والمنوفية ؛ وبذلك لم يبق أمامه الا البحرية . وكان أن دبر أيبك مؤامرة لقتل فارس الدين أقطاى زعيم البحريـــة ، وتم تنفيـــذ

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٨٠ .

المؤامرة فعلا بالقلعة . ولما شاع خبر مقتل أقطاى ، اجتمع من البحرية سبعمائة فارس تحت أسوار القلعة ، فرمى اليهم أيبك برأس أقطاى ، وعندئذ قرر بيبرس وبقية زعماء البحرية الفرار الى الشام ، قبل أن يظفر أيبك بهم فيتعرضوا على يديه لما تعرض له أقطاى .

وقد استاء أيبك لفرار زعماء البحرية من مصر ، ولكنه أسرع بالقبض على من بقى من تلك الطائفة ، فقتل بعضهم وحبس البعض الآخر ، كما صادر أملاكهم وأموالهم . أما الأمير بيبرس ومن نجا صحبته من زعماء البحرية فقد كتبوا الى الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب يخبرونه برغبتهم فى الدخول فى خدمته ، فرحب بهم ومنحهم الأموال ، فى حين أخذوا هم يحرضونه على مهاجمة مصر . ولا شك فى أن المعز أيبك عمل حسابا كبيرا لحركات بيبرس ورفاقه فى تلك الفترة ، فأرسل الى الناصر يوسف والى سلطان سلاجقة الروم يحذرهما من البحرية ويخوفهما عاقبة شرهم . ولكن هذا التحذير لم يفلح فى تحقيق ما أراده أيبك « فأعجب سلطان الروم بهم واستخدمهم عنده » ، فى حين استجاب الناصر يوسف صاحب حلب لرجاء البحرية وأعد جيشا لغزو مصر. وعندما تقابل جيش الناصر يوسف مع جيش أيبك عند العباسة سنة ١٢٥٦ تم الصلح بين الطرفين ، وكان من شروط ذلك الصلح عدم التعرض بأذى للبحرية .

على أن الأمور لم تستقر للمعز أيبك فى مصر بعد أن نكّل بالبحرية ، اذ ظل يخشى على نفسه من زوجه شجر الدر التى

« استبدت بأمور المملكة ولا تطلعه عليها ، وتمنعه من الاجتماع بأم ابنه على ، وألزمته بطلاقها » . لذلك عزم أيبك على قتل شجر الدر ، لا سيما بعد أن أخبره أحد المنجمين بأن سبب قتلته ستكون امرأة [1] .

وفى الوقت نفسه يروى أبو المحاسن أن شجر الدر كانت شديدة الغيرة ، فلما بلغها أن زوجها أيبك يريد أن يتزوج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، تملكتها الغيرة وأدركت أنه يريد التخلص منها « لأنه سئم من حجرها عليه واستطالتها » [2] . وهكذا انتهى الأمر بأن قتلت شجر الدر زوجها أيبك ، فانتقم مماليك أيبك بقتل شجر الدر ، وبذلك خلا المسرح من أيبك وشجر الدر جميعا . واختار الأمراء علىّ بن أيبك سلطانا ، وكان صغيرا فى الخامسة عشرة من عمره ، فقام الأمير سيف الدين قطز بنيابة السلطنة .

وفى تلك الأثناء ظل زعماء البحرية — وعلى رأسهم بيبرس — يحيون بالشام حياة قلق وعدم استقرار ، بعد أن آلمهم الصلح الذى تم سنة ١٢٥٦ بين المعز أيبك والناصر يوسف الأيوبى . وكان أن يئس البحرية من الناصر يوسف فاتجهوا نحو المغيث عمر صاحب الكرك وأطمعوه فى ملك مصر ، وعندئذ رحب بهم وأجزل لهم العطاء وأمدهم بالرجال والسلاح لغزو مصر [3] . ولم يكد

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٠١ — ٤٠٣ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .
(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٩٢ — ١٩٣ .

سيف الدين قطز نائب السلطنة فى مصر يسمع بأن البحرية « وأمرهم راجع الى بيبرس البندقدارى » فى طريقهم لغزو مصر حتى خرج اليهم وأنزل بهم الهزيمة قرب الصالحية ، فعادوا الى الكرك .

وكان الناصر يوسف عندئذ يراقب تصرفات البحرية والمغيث عمر لغزو مصر ، بعين القلق والشك . وقد حدث سنة ١٢٥٨ أن قام المغيث عمر — يعاونه البحرية — بمحاولة أخرى لغزو مصر ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل فعاد المغيث عمر الى الكرك ، فى حين اتجه البحرية وعلى رأسهم الأمير بيبرس الى الطور حيث اجتمعوا ببعض الأكراد الفارين من وجه المغول . وهنا خشى الناصر يوسف عاقبة تعاون البحرية مع الأكراد ، فأرسل اليهم جيشا من دمشق لمحاربتهم ، وعندئذ أسرع البحرية نحو الكرك طالبين حماية المغيث عمر من جديد . وعندما علم بيبرس أن ثمة مفاوضات جارية بين الناصر يوسف والمغيث عمر لتسليم البخرية ، آثر أن يتجه ومعه جماعة من البحرية الى الناصر يوسف مختارين ، فرحب بهم وأكرم وفادتهم .

* * *

على أن استيلاء المغول على بغداد فى فبراير سنة ١٢٥٨ أثار موجة شاملة من الذعر والأسى فى العالم الاسلامى أجمع ، وبدأ الناس فى الشام ومصر بالذات يحسون أن دورهم قريب ، وأن الموقف يتطلب الاتحاد لمواجهة تلك الأزمة التى لم يشهد المسلمون مثلها حتى ذلك الوقت . وكان أن أسرع سيف الدين قطز نائب

السلطنة فى مصر الى اعلان نفسه سلطانا بعد أن نادى بأن المنصور على بن أيبك صبى صغير لا يعرف تدبير المملكة وأنه « لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو » . ولم يلبث أن هدد المغول حلب فعلا ، وعندئذ لجأ صاحبها الناصر يوسف الى الاستنجاد بالمغيث عمر صاحب الكرك والمظفر قطز صاحب مصر . وهنا يذكر التاريخ موقفا مشرفا للأمير بيبرس فى دمشق ، اذ تخوف بعض الأمراء من عاقبة مقاومة المغـــول ، ونادى الأمير زين الدين الحافظى بالاستسلام لهولاكو وجيوشه ، وعندئذ ثار بيبرس ولطم ذلك الأمير على وجهه وسبّه قائلا « أنتم سبب هلاك المسلمين ! » .

وهكذا بث بيبرس فى الناصر يوسف وأمرائه روح المقاومة ؛ بل ان بيبرس رأى أن يتناسى الأحقاد القديمة بين البحرية والمظفر قطز ، فسار الى غزة وأرسل الى قطز يطلب منه الأمان ليتضافر الجميع على حرب المغول . وكان أن رحب قطز بالأمير بيبرس واستقبله أحسن استقبال فى أوائل سنة ١٢٦٠ ، بل انه أقطعه قليوب وأعمالها [١] .

ولم يلبث أن استولى المغول على حلب ودمشق وغيرهما من مدن الشام ، فى الوقت الذى اضطر هولاكو الى العودة الى مركز المغول فى قراقورم تاركا قيادة جيشه لنائبه كتبغا . على أن هولاكو كان قد أرسل قبل عودته الى جوف آسيا خطابا مع بعض الرسل الى المظفر قطز فى مصر يطلب منه التسليم ويحذره من عاقبة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٩٤ (مخطوط) .

المقاومة « .. فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا الينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى .. فأى أرض تأويكم وأى طريق تنجيكم وأى بلاد تحميكم ؟ فما من سيوفنا خلاص ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ..!! » .

وكان أن جمع قطز الأمراء واستشارهم فيما يجب عمله ، فأجمعوا رأيهم على الثبات والجهاد والمقاومة ، وعندئذ بادر قطز بالقبض على رسل المغول وقتلهم ثم علق رءوسهم على باب زويلة ، فكانت هذه الرءوس أول ما علق على باب زويلة من رءوس التتار (١) .

وفى ذلك الوقت كانت طلائع المغول قد وصلت الى غزة والخليل « فقتلوا الرجال وسبوا النساء والصبيان ، واستاقوا من الأسرى والأبقار والأغنام والمواشى شيئا كثيرا » . لذلك بادر قطز بالاستعداد على عجل ، وأرسل مقدمة الجيش المصرى فى أواخر يوليو سنة ١٢٦٠ الى غزة تحت قيادة الأمير ركن الدين بيبرس « ليتجسس أخبار التتار » (٢) . وكانت مقدمة الجيش المغولى عند غزة بقيادة بيدرا ، فأرسل بيدرا الى كتبغا فى بعلبك يعلمه بوصول الجيش المصرى ويطلب منه النجدة . ولكن بيبرس بادر

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٢٨ — ٤٢٩ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٠١ .

المغول بالهجوم قبل أن تأتيهم النجدة المنتظرة ، فأنزل بهم الهزيمة وطاردهم حتى نهر العاصى [1] .

وعندما وصل قطز — بعد قليل — على رأس بقية الجيش المصرى ، صحب بيبرس وسارا معا بحذاء الساحل ، ثم اتجه المسلمون شرقا عبر الجليل الى الأردن لاسترداد دمشق من المغول .

وفى تلك الأثناء كان كتبغا قد علم بهزيمة رجاله عند غزة ، فأسرع بالحضور « وكأنه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب » . وهكذا التقى المغول بجيش مصر عند قرية عين جالوت — بين بيسان ونابلس — فى أوائل سبتمبر سنة ١٢٦٠ . وهنا لجأ السلطان المظفر قطز الى خدعة حربيـــة ناجحة ، فأخفى معظم جيشه بين الأحراش والأشجار المحيطة بالعين ، وترك مقدمة الجيش فقط بقيادة الأمير بيبرس تتابع سيرها فى اتجاه المغول . وقد جازت الخدعة على كتبغا ، فانقض على بيبرس ورجاله ، وعندئذ داهمته بقية الجيش المصرى من كل صوب . وفى موقعة عين جالوت أظهر جيش مصر شجاعة نادرة ، حتى يقال ان العسكر اضطرب فى أول الأمر ، فألقى السلطان قطز خوذته عن رأسه الى الأرض وصاح بأعلى صوته « وا إسلاماه ! » وحمل بنفسه على العدو الذى ولى الأدبار .

أما بيبرس فكان على رأس الطليعة الفدائية فى حرب المغول ، فهو الذى خرج على رأس مقدمة الجيش الى غزة حيث أنزل الهزيمة بالقائد المغولى بيدرا ، وهو الذى قاد الكمين فى عين جالوت

---

(١) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ج ١ ص ٣١٣ .

لاستدراج كتبغا والايقاع به ، وهو الذى أبدى طيلة المعركة من ضروب الشجاعة والفروسية ما جعله محور الموقعة وقلب الحركة فيها . ولا أدل على مدى انفعال بيبرس بأحداث موقعة عين جالوت من أنه حرص — عندما أصبح سلطانا — على تخليد ذكرى ذلك الانتصار باقامة نصب تذكارى فى الساحة التى تم فيها نصر المسلمين على المغول فى عين جالوت ، وقد أطلق على هذا النصب اسم « مشهد النصر » ويعتبر المثل الوحيد للنصب التذكارية فى الاسلام [1] .

أما عن السلطان المظفر فقد غدا عقب موقعة عين جالوت سيد الموقف فى بلاد الشام ، ولم تستطع بقايا البيت الأيوبى فى بلاد الشام مقاومته أو الوقوف فى وجهه . وكان أن دخل قطز دمشق دخول الظافر فاستقبل استقبالا حافلا . وبعد أن أجرى قطز بعض التنظيمات فى بلاد الشام أخذ يستعد للعودة الى القاهرة . غير أنه لم يقدر لقطز أن يدخل القاهرة التى كانت قد استعدت لاستقباله ، وذلك بسبب ما نجم عن الخلاف الذى نشب بينه وبين بيبرس . ذلك أن بيبرس كان يأمل أن يجد من قطز حظا من التقدير بعد ما أبداه من شجاعة فى حرب المغول ، فطلب من قطز أن يوليه نيابة حلب التى كان السلطان قد وعد فعلا بمنحها اياه [2] . ولكن قطز امتنع وتنكر للجميل ، وبذلك أظهر قصر نظر

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٦ ، زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٤٤ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠١ .

واضح ، لأن المكانة التي أحرزها بيبرس فى ذلك الوقت كانت أعظم من أن يتجاهلها انسان. ولو كان قطز حكيما لألهى بيبرس بنيابة حلب ، وبذلك يأمن منافسته له فى مصر (١) .

ومهما يكن من أمر ، فقد أسرّ بيبرس شيئا فى نفسه ، وصمم على الانتقام فى أول فرصة مواتية . ويقال ان بيبرس دبر المؤامرة مع زملائه من البحرية لقتل قطز والخلاص منه . ولم تلبث أن واتتهم الفرصة عندما وصل ركب السلطان الى الصالحية فى طريقهم الى القاهرة ، اذ أظهر قطز رغبته فى الصيد . ولما فرغ السلطان من الصيد تقدم منه الأمير بيبرس وطلب امرأة من سبى التتار فأجابه السلطان الى طلبه وأنعم عليه بما أراد . وكان أن تظاهر بيبرس برغبته فى تقبيل يد السلطان — وكانت اشارة بينه وبين شركائه من الأمراء المتآمرين — فقبض بيبرس على يد قطز ليمنعه من الحركة فى حين انهال عليه بقية أمراء البحرية بسيوفهم ورماحهم وألقوه عن فرسه حتى أجهزوا عليه . وبمقتل قطز على هذا الوجه فى أواخر أكتوبر سنة ١٢٦٠ ، خلا الجو للبحرية وزعيمهم بيبرس (٢) .

---

(١) محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس ص ٥١ .

(٢) أبو الفدا ج ٣ ص ٢٠٧ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٥ . هذا ، وقد اختلفت رواية أبى المحاسن عن رواية أبى الفدا والمقريزى ، اذ يروى أن قطز ابتعد أثناء الصيد فى مطاردة أرنب ، فتبعه المتآمرون عليه « فلما أبعدوا ولم يبق مع المظفر غيرهم تقدم اليه ركن الدين بيبرس وشفع عنده فى انسان ، فأجابه المظفر ، فأهوى بيبرس ليقبل يده فقبض عليها وحمل أنص عليه وقد أشغل يده وضربه أنص بالسيف ... » .

الفصل الثالث

السلطان الظاهر

امتاز عصر المماليك بعدم احترامهم المبدأ الوراثى فى الحكم ، فجميع الأمراء خشداشية — أى زملاء — والسلطان نفسه ليس الا أميرا كبيرا استطاع أن يصل الى منصب السلطنة بفضل قوته وسعة حيلته . واذا كان بعض سلاطين المماليك قد نجحوا فى توريث أبنائهم منصب السلطنة ، فان هذا النجاح كان مؤقتا وغير شرعى فى نظر المماليك أنفسهم ، فلا يلبثون أن يعزلوا ذلك الابن ليتولى أقوى الأمراء الحكم .

لذلك كان طبيعيا أن تؤول السلطنة بعد مقتل قطز الى قاتله الأمير ركن الدين بيبرس بوصفه أقوى الأمراء البحرية من ناحية وصاحب الفكرة فى قتل قطز من ناحية ثانية ، فضلا عن مواقفه المعروفة فى حرب المغول من ناحية ثالثة .

وتروى المراجع أن الأمراء البحرية الذين قتلوا قطز ساروا بعد تنفيذ مؤامراتهم الى الدهليز السلطانى بالصالحية وقد أجمعوا أمرهم على سلطنة بيبرس . وعندما قابلهم الأمير فارس الدين أقطاى الأتابك عند باب الدهليز ، أخبروه بما فعلوا من قتل السلطان

قطز ، وعندئذ سألهم الأتابك « من قتله منكم ؟ » فقال بيبرس « أنا » . فنظر اليه الأتابك وقال « يا خوند ، اجلس فى مرتبة السلطنة ! » .

على أن الأمر الذى يسترعى الدهشة هو السهولة والبساطة اللتان تم بهما احلال القاتل محل القتيل ، اذ استدعى العسكر فى الحال ليحلفوا للسلطان الجديد قبل أن تجف دماء ضحيته . وكان القاضى برهان الدين قد وصل من القاهرة ليستقبل قطز ويهنئه بانتصاره فى عين جالوت ، فاستدعى القاضى نفسه ليقوم بتحليف العسكر للملك بيبرس الذى تلقب بالملك القاهر .

وبعد أن تمت هذه الاجراءات المبدئية فى الصالحية ، قال الأمير أقطاى لبيبرس « لا تتم السلطنة الا بدخولك قلعة الجبل » . لذلك أسرع بيبرس ومعه صحبة من الأمراء الى القاهرة التى كانت قد زينت لاستقبال المظفر قطز بطل عين جالوت ، فاذا بالمنادى ينادى فى طرقات القاهرة « ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس ! »[1] وهكذا شق بيبرس طريقه الى قلعة الجبل فلقيه الأمير عز الدين أيدمر نائب السلطنة ، وكان قد خرج للقاء قطز فأخبره بيبرس بما حدث ، وعندئذ حلف نائب السلطنة للسلطان الجديد وتقدمه الى القلعة حيث أغرى من فيها من الأمراء على موافقة بيبرس ، وبذلك تسلم بيبرس قلعة الجبل ، حاضرة الحكم فى البلاد .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٧ .

ويروى المؤرخ أبو المحاسن أن الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير — وكان فاضلا فى الأدب وعلم التاريخ — دخل على السلطان بيبرس بالقلعة فأشار عليه بتغيير لقبه « القاهر » وقال له : « ما لقب به أحد فأفلح ، لقب به القاهر بن المعتضد فلم تطل مدته وخلع من الخلافة وسحل ، ولقب به القاهر ابن صاحب الموصل فسُمَّ » . لذلك تشاءم بيبرس من لقب القاهر وأبطله واتخذ لقبا جديدا هو « الملك الظاهر » [1] .

وبدخول بيبرس قلعة الجبل يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٢٦٠ بدأت صفحة جديدة فى التاريخ . ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس أثبت بأعماله واصلاحاته وحروبه أنه المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام . ومن يتأمل دولة المماليك فى الدور الأول من نشأتها يجد أنه تعاقب على عرشها فى السنوات العشر الأولى من عمرها خمسة سلاطين ، مما يدل على حالة القلق وعدم الاستقرار التى تعرضت لها تلك الدولة عندئذ . أما بيبرس فيكفيه أنه شغل كرسى السلطنة سبعة عشر عاما ، وهى مدة طويلة لم يبلغها أحد من سلاطين دولة المماليك البحرية ، عدا السلطان الناصر محمد بن قلاون . واذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد بقى مدة طويلة فى الحكم ، فان ذلك جاء دليلا على قوته ونجاح سياسته فى الحكم من ناحية ، فضلا عن استقرار الأمور له من ناحية أخرى . ولم يلبث أن وضع بيبرس لنفسه سياسة واسعة الأفق استهدفت فى الخارج صد

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

أخطار المغول والصليبيين عن بلاد الشام ونشر نفوذه على شبه الجزيرة العربية والنوبة . وفى الداخل توطيد الأمن والقضاء على الثوار والمناوئين وتخفيف الأعباء الملقاة عن كواهل الأهالى ، ثم وضع قواعد النظام الادارى فى مصر والشام فى العصر المماليكى ؛ فضلا عن القيام بقدر ضخم من الاصلاحات المتنوعة .

وكان طبيعيا أن يبدأ السلطان الظاهر بيبرس بتقوية جبهته الداخلية قبل أن يشرع فى محاربة الصليبيين والمغول ؛ ولذلك أخذ يستميل عامة الناس بتخفيف عبء الضرائب عنهم . وقد أجمعت المراجع على أن المظفر قطز كان قد استحدث كثيرا من الضرائب والمكوس ليستعين بحصيلتها على حرب المغول ، ومن جملة ذلك أنه فرض على كل واحد من أهل مصر دينارا ، كما صار يأخذ ثلث الزكاة وثلث قيمة التركات ، فبلغ حصيلة ذلك كله ستمائة ألف دينار فى العام [1] . فلما ولى السلطان الظاهر بيبرس أبطل جميع تلك الضرائب التى استحدثها قطز ، وكتب منشورا بذلك قرأ على منابر المساجد « فسر الناس ذلك وزادوا فى الزينة ! » .

* * *

الثورات الداخلية :

على أن الأمور لم تتم لبيبرس فى سهولة مطلقة ، ودون أن

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦٧ ــ ٦٨ .

يتعرض للثورات المألوفة التى تعرض لها سلاطين المماليك كافة فى مستهل حكمهم . وكان بيبرس قد كتب الى الملوك والأمـراء والنواب يخبرهم بسلطنته ، فأجابوا كلهم بالسمع والطاعة ، عدا الأمير سنجر الحلبى نائب دمشق الذى استاء لمقتل قطز ، « وأنف من طاعة بيبرس » . وقد أخذ سنجر الحلبى يمكن لنفسه بسرعة فى دمشق ، فدعا لنفسه فى خطبة الجمعة ، وتلقب بالملك المجاهد ، ووضع اسمه الى جانب اسم الظاهر بيبرس على النقود . ويبدو أن النجاح المبدئى الذى أحرزه الأمير سنجر الحلبى بسبب انشغال بيبرس بشئون سلطنته الجديدة فى مصر ، جعله يتمادى فى أطماعه، فبات يحلم بالسلطنة وركب بشعار السلطنة فى دمشق ، ثم أخـذ يستعد لما عساه يتعرض له من هجوم من جانب بيبرس ، فأسرع فى عمارة قلعة دمشق « وجمع لها الصناع وكبراء الدولة والناس وعملوا فيها ، حتى عملت النساء أيضا »[1] . وفى تلك المرحـلة وصل رسول الظاهر بيبرس الى دمشق ليخبر الأمير سنجر بسلطنة بيبرس ويطلب منه تقديم الطاعة للسلطان الجديد ، فوجد الرسول أن الأمير سنجر قد تسلطن فى دمشق ، وعندئذ عاد الرسول الى مصر .

ومن الواضح أن ثورة الأمير سنجر شكلت خطرا كبيرا على بيبرس فى أوائل حكمه ، لا سيما بعد أن حاول سنجر مد نفوذه على بقية أنحاء الشام ، فأرسل الى الأمير حسـام الدين لاجين

---

(١) المقريزى : السلوك ج١ ص ٤٣٩ .

حاكم حلب يستميله للدخول فى طاعته وأن يكون نائبا لسنجر فيها . ولكن حسام الدين رفض الاستجابة لسنجر وقال « أنا نائب لمن ملك مصر » ، وأعلن طاعته للظاهر بيبرس . وكان أن أرسل الظاهر بيبرس الى الأمير سنجر يعنفه ويقبح فعله ، فلم يمتثل سنجر « وغالطه فى الجواب » . ويبدو أنه لم يكن فى وسع بيبرس عندئذ أن يرسل رجاله فى هيئة حملة عسكرية لاخضاع سنجر ، وذلك خوفا على مركزه الذى لم يستقر فى مصر . لذلك لجأ بيبرس الى الحيلة فكاتب أمراء دمشق يستميلهم اليه ويحضهم على منابذة الأمير علم الدين سنجر الحلبى والقبض عليه . ثم ان بيبرس لجأ الى استخدام سلاح المال ، فأرسل أحد أمرائه الى دمشق ومعه مائة ألف درهم وخلع وحلى قيمتها ألفا دينار ، وذلك « ليستميل الناس على المجاهد سنجر » . وكان أن أفلحت خطة بيبرس فانفض الأمراء فى دمشق عن سنجر ونادوا باسم الملك الظاهر بيترس ، وعبثا حاول سنجر اخضاع هؤلاء الأمراء ، اذ انهزمت جنوده أمامهم ، فاضطر الى الفرار الى بعلبك فى نحو عشرين من مماليكه ، على حين دخل الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار — وهو أستاذ الملك الظاهر بيبرس أولا كما مر بنا — مدينة دمشق ، وحكمها نيابة عن السلطان بيبرس . أما الأمير سنجر فقد تبعته قوة من العسكر قبضت عليه وأحضرته الى القاهرة حيث اعتقله السلطان الظاهر بالقلعة ، حتى أفرج عنه بعد ذلك وقلده نيابة حلب .

ولم تكن ثورة الأمير سنجر هى الوحيدة التى اعترضت

بيبرس فى أوائل حكمه ، وانما حدث أن ثار الأمير شمس الدين أقوش البرلى . وكان السلطان الظاهر بيبرس قد كلف نائبه بدمشق — الأمير علاء الدين البندقدار — بالقبض على بعض الأمراء الذين توهم منافستهم له مثل الأمير شمس الدين أقوش البرلى ، الذى كان قطز قد ولاه على نابلس وغزة وبعض بلاد الساحل . ولكن شمس الدين البرلى استطاع الفرار ومعه بعض المماليك العزيزية والناصرية ، فاتجهوا شمالا وحاولوا استمالة صاحبى حمص وحماة الى جانبهم ، فلما فشلوا فى ذلك انقضوا على حلب واستولى عليها البرلى ورفاقه . ولم يلبث أن أخذ البرلى يوطد مركزه فى حلب ويستعد لمواجهة ما عساه أن يبعثه السلطان من جند ضده ، فاستعان بما وجده من أموال فى حلب فى استمالة كثير من العرب والتركمان ليقفوا الى جانبه ويحاربوا فى صفه .

وعندما علم السلطان بيبرس بما فعله الأمير البرلى فى حلب غضب لذلك وأرسل ضده جيشا بقيادة الأمير جمال الدين المحمودى ؛ كما عين الأمير سنجر الحلبى نائبا على حلب — كما سبق أن ذكرنا — ليسترد المدينة من البرلى . وكان أن نجحت قوات الظاهر بيبرس فى الاستيلاء على حلب ، وعندئذ فر البرلى الى البيرة على الفرات حيث أعلن ندمه وتوبته ، وأرسل الى السلطان بيبرس يطلب عفوه ، فعفا عنه وأكرمه عند قدومه الى مصر [1] .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٢٠٩ ـ ٢١١ .

ثم ان جميع المؤامـــرات التى تعرض لها الظاهر بيبرس من جانب أمراء المماليك فى ذلك الدور التأسيسى من حكمه لم يكن مسرحها بلاد الشام فحسب، بل حدث أن تآمر بعض أمراء المماليك فى القاهرة سنة ١٢٦١ على الظاهر بيبرس ، واتفقوا على قتله وفرقوا الأموال على المماليك لاستمالتهم . ولكن أحد الأجناد وشى بالأمير الصيقلى — زعيم المؤامرة — عند السلطان ، فقبض على ذلك الأمير وشركائه ، واستمروا معتقلين الى أن عفا عن معظمهم بعد ذلك . وهنا نلاحظ حرص بيبرس ، فى ذلك الدور الذى أخذ يمكن لنفسه فيه ، على استمالة قلوب الأمراء بالعفو وحسن المعاملة .

على أنه اذا كان الظاهر بيبرس قد لجأ الى التسامح مع أمراء المماليك الذين خرجوا عليه فى بداية حكمه ، فانه لم يكن مستعدا لاتباع هذه السياسة مع غيرهم ، اذا أحس بخطر يهدد كيانه . من ذلك أن بيبرس كان لا يزال متخوفـــا من بعض بقايا البيت الأيوبى بالشام ، وهم الذين عز عليهم أن ينتقل الحكم والسلطنة الى مماليكهم ويحرمونهم — وهم سلالة أيوب وأقرباء صلاح الدين — من حقهم الموروث فى السلطنة . وقد زاد من مخاوف الظاهر بيبرس أن الملك المغيث عمر الأيوبى صاحب الكرك استعان ببعض جموع الاكراد الذين فروا اليه من وجه المغول ، وأخذ يغير على الشوبك وغيرها من المناطق القريبة التابعة للســـلطان الظاهر . وعندما أحس الملك المغيث الأيوبى بنية بيبرس فى الانتقام أسرع الى الاعتذار وطلب العفو عنه وعن حلفائه الأكراد ، فعفا بيبرس عنهم جميعا ، ووفد هؤلاء الاكراد الى مصر حيث أحسن

السلطان معاملتهم . ولكن بيبرس كان لايستطيع الاطمئنان الى شعور بنى أيوب — وبخاصة المغيث عمر — فخرج من مصر سنة ١٢٦٢ وفى عزمه القضاء على ذلك الخطر . وكان أن أسرعت أم المغيث لمقابلة السلطان بيبرس عند غزة لتشفع فى ولدها وتطلب له الأمان ، فتظاهر بيبرس بالموافقة على طلبها ، وأعلن عفوه عن المغيث وطلبه ليقابله فى بيسان .ولما تقابلاغدر به بيبرس ، فقبض عليه وأرسله الى القاهرة حيث ظل معتقلا بقلعة الجبل الى أن قتل بعد ذلك [١] .

وقد حاول المؤرخون أن ينتحلوا الاعذار لغدر بيبرس بالمغيث عمر . فمنهم من قال : ان المغيث راود امرأة الظـاهر عن نفسها قبل أن يلى الأخير منصب السلطنة ، ومنهم من قال ان الشهود شهدوا على أن المغيث كان متواطئـا مع المغول ضـد المسلمين وأنه أراد أن يسـتعين بالمغول للقضـاء على الظاهر والمماليك واسترداد سلطان بنى أيوب ؛ ولكن من الواضح أن هذه الاعذار كلها لا تخفى الحقيقة الواقعة وهى تخوف بيبرس من دسائس بنى أيوب بوصفهم أصحـاب حق شرعى فى الحكم . ويبدو أن المغيث عمر بالذات كان أقوى من بقى منهم عندئذ ، كما كان واسع الحيلة شـديد الدهاء مما جعل بيبرس يعجل بالتخلص منه . واذا كان قد بقى بعد ذلك بعض أفراد البيت الأيوبى فى حكم أجزاء من الشـام فان هؤلاء كانوا قلة ، مثـل الأشرف

---

(١) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣٠ ـ ٢٣١ (مخطوطة دار الكتب) .

شـــيركوه صاحب حمص الذى توفى بعـــد قليل فآلت حمص الى سلطنة المماليك بمصر [1] .

* * *

ولم تكن جميع الثورات التى واجهت بيبرس فى ذلك الدور التأسيسى لدولته ناشئة من جانب أمراء الأيوبيين والمماليك ؛ بل حدث سنة ١٢٦٠ — وهى السنة التى تولى فيها بيبرس منصب السلطنة — أن قامت فتنة داخلية فى مصر ولكنه أسرع الى اخمادها قبل أن تتسع دائرتهـــا . وقد أشارت المراجع الى هــذه الفتنة اشارات مقتضبة موجزة ، فذكر المقريزى أن المحرض عليها كان رجلا اسمه الكورانى تظاهر بالزهد « وحمل بيده ســبحة » ، وأخذ يتصل سرا بالغلمان وهم الخدم الذين يقومون بخدمة الخيل، والركبدارية الذين يحملون الغاشـــية بين يدى الســـلطان فى المواكب . ولم يلبث أن أصبح للكورانى مكانة فى نفوس هؤلاء وتأثير عليهم ، فأخذ يحرضهم على الثورة على أهل الدولة ، ومناهم بالأمانى العريضة الكفيلة بتغيير وضـــعهم الاجتماعى وجعلهـــم يعيشون فى حال من رغـــد العيش ، حتى انه أقطعهم الاقطاعات وكتب لهم رقاعا ومناشير بها . كذلك يبدو أن هؤلاء الثوار من السودان والركبدارية والغلمان اعتنقوا المذهب الشـــيعى الذى ظلت بقاياه قائمة فى مصر منذ أيام الفاطميين ، بدليل ما يذكره المقريزى من أنهم كانوا يصيحون فى ثورتهم هاتفين «يا آل على»!.

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٣٨٥ .

ومهما يكن من الأمر فقد نجح الثوار أثناء الليل فى اقتحام سوق السيوفيين بين القصرين ، ونهبوا ما فى حوانيته من سلاح ، ثم اقتحموا اصطبلات أجناد المماليك وأخذوا منها الخيول ؛ وبعد ذلك شقوا القاهرة معلنين الثورة على حكومة المماليك . ولكن هذه الفتنة كانت محدودة النطاق ، لم يشترك فيها بقية أهل القاهرة ، هذا الى أن دراية الثوار القائمين بها بشئون الحرب واستعمال السلاح كانت بسيطة ؛ فلم يلبث أن أحاط بهم العسكر وقبضوا عليهم « فاصبحوا مُصلَّبين خارج باب زويلة ، وسكنت الثائرة » [1] .

وهكذا نجح الظاهر بيبرس فى التغلب على المصاعب الأولى التى اعترضت طريق سلطنته فى مصر والشام ، وبدا كأن دولته قد أفلحت فى ارساء قواعدها وتثبيت أوتادها . ولكن ثمة ناحية حساسة فى تاريخ المماليك كانت تقلقهم وتقلل من مكانتهم فى نظر المعاصرين ، وتشعرهم أنهم فى حاجة الى قدر اضافى من التأييد لاكساب حكمهم صبغة شرعية فى نظر المسلمين كافة وأهل مصر والشام خاصة . أما هذه الناحية فترتبط بأصل المماليك ونشأتهم ؛ اذ من المعروف أنهم جميعا كانوا فى أولى مراحل حياتهم أرقاء ، أحضروا الى مصر والشام صحبة تجار الرقيق ، مما جعلهم دائما أبدا مجرحين من ناحية الأصل والنشأة . وقد أحس سلاطين المماليك وأمراؤهم بمركب نقص واضح فى هذه الناحية ، وشعروا

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٠ .

بأن الناس يعيرونهم بأصلهم غير الحر ، وأنه لم تجر الأوضاع فى الدولة الاسلامية بأن تكون الطبقة الحاكمة المسيطرة كلها من المماليك . وحسبهم أن الاعراب فى مصر وصفوا السلطان المعز أيبك سنة ١٢٥٠ بأنه « مملوك قد مسه الرق » [1] ، كما قالوا عن المماليك بوجه عام « انما هم عبيد خوارج » . كذلك تذكر المراجع أن أحد رجال الدين — وهو القاضى أبو البقاء السبكى — تطاول على بعض سلاطين المماليك وقال له « ان كنت ما تعرفنى فأنا أعرفك بنفسى » ، وفى هذا تلويح خفى لأصل السلطان وفصله. على أن بيبرس سرعان ما أحس بأن هذا النصر — الذى نسب الى قطز — غير كاف ، وأنه لابد من أن يتبعه بأعمال أخرى — حربية وغير حربية — تحقق له قدرا من السمو والشرعية فى نظر المعاصرين . ولعل فى هــذا كله بعض السر فى حرص السلطان الظاهر بيبرس على القيام بحروب واسعة ضد الصليبيين والمغول جميعا وعمله على التقرب الى رجال الدين والعلماء وتخفيف الضرائب عن كاهل رعاياه ، فضلا عن بناء المدارس والجوامع والقيام بالمشروعات العمرانية والاصلاحات الهــامة داخل مصر وخارجها ليمكن لنفسه ولدولته .

* * *

احياء الخلافة العباسية بمصر :

وثمة عمل هام أقدم عليه السلطان الظاهر بيبرس فكان له أبلغ

(١) المقريزى : البيان والإعراب ص ٩ .

الأثر والنتائج بالنسبة للتاريخ الاسلامى عامة وتاريخ مصر خاصة؛ ثم بالنسبة لتاريخ دولة المماليك وعهد الظاهر بيبرس على وجه التحديد ؛ ونعنى بهذا المشروع احياء الخلافة العباسية فى مصر . ومن الثابت أن العالم الاسلامى أخذ يحس بفراغ كبير بعد سقوط الخلافة العباسية فى بغداد على أيدى المغول سنة ١٢٥٨ ، اذ أمسى المسلمون بدون خليفة وهو أمر لم يعتادوه منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . وكان من المتعذر أو المستحيل بعد مقتل الخليفة المستعصم العباسى أن يخلفه أحد أبناء بيته فى بغداد ، اذ غــدت حاضرة العباسيين قاعدة للمغول الوثنيين الذين لم يكتفوا بقتل خليفة المسلمين وانما أحرقوا جوامعهم وهدموا مساجدهم . لذلك أراد بعض حكام المسلمين فى البلدان المجاورة أن يغتنموا الفرصة لاحياء الخلافة فى بلادهم مما يعود على من ينجح فى ذلك بالمكانة السامية بوصفه حامى الخلافة الاسلامية المتمتع بعطفها . ومن ذلك ما يقال من أن الناصر يوسف الأيوبى — صاحب حلب ودمشق عند مولد دولة المماليك — فكر عقب سقوط الخلافة العباسية فى بغداد ، فى استمالة أحد أبناء البيت العباسى الفارين من وجه المغول الى مقر امارته ببلاد الشام ليعلنه خليفة ويجنى من وراء ذلك بعض المكاسب السياسية التى تمكنه من الصمود فى وجه المماليك بمصر . ولكن سرعة تطور الأحداث التى صحبت قيام دولة المماليك لم تمكن الناصر يوسف من تحقيق غرضه . كذلك فكر السلطان المظفر قطز فى احياء الخلافة العباسية ، ومن ذلك ما يذكره السيوطى من أن قطز علم وهو بدمشق عقب انتصاره

على المغول فى عين جالوت بوصول أحد أمراء بنى العباس فأمر بارساله الى مصر حتى يتخذ العدة لاعادته الى بغداد [1] . غير أن العمر لم يمهل قطز لينفذ مشروعه الخاص باحياء الخلافة العباسية فى بغداد .

وهكذا شاءت الظروف أن يكون السلطان الظاهر بيبرس هو صاحب فكرة احياء الخلافة العباسية فى مصر بالذات . ومهما قيل من أن بعض الحكام المسلمين فى بلاد الشام ومصر قد فكروا فى احياء الخلافة العباسية قبل بيبرس ، فان هذه المشروعات لم تتحقق فضلا عن أن أحدها لم يتجه نحو التفكير فى احياء الخلافة العباسية فى القاهرة بالذات ، مما ضمن للظاهر بيبرس فى التاريخ فخر تنفيذ الفكرة عمليا من ناحية وفخر ربط الخلافة العباسية فى ذلك الدور الجديد من أدوار تاريخها بمصر والقاهرة من ناحية أخرى .

ذلك أن الأمير علاء الدين البندقدار نائب السلطان الظاهر فى دمشق كتب اليه يخبره بأن أحـد بنى العباس — وهو الأمـير أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء لدين الله العباسى — وصل الى دمشق ومعه جماعة من عرب بنى مهنا يشهدون على صحة نسبه ، وأنه يريد أن يلحق بالسلطان الظاهر بيبرس بالقاهرة . وكان أن وجد بيبرس فرصته فى مجىء ذلك الأمير ، فرد على الأمير البندقدار يأمره « بالقيام فى خدمته وتعظيم حرمته » كما أمره أن يرسل معه

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ ، مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد ص ٩٣ .

حجابا الى مصر . وهكذا غادر الأمير العباسى دمشق « فسار بأوفر حرمة الى جهة مصر » ؛ وفى القاهرة استقبل الأمير أحمد استقبالا حافلا فخرج السلطان الى لقائه ومعه الوزير وقاضى القضاة وجمهور كبير من أعيان القاهرة وأهلها ، كما « خرجت اليهود بالتوراة والنصارى بالانجيل » لاستقباله . وكان يوم دخوله القاهرة من الأيام المشهودة ، اذ سار فى شوارع القاهرة وقد لبس الشعار العباسى ، حتى صعد قلعة الجبل وهو راكب ، فأنزله السلطان « فى مكان جليل قد هيىء له بها ، وبالغ فى اكرامه واقامة ناموسه »[1] .

ولم يمض على وصول الأمير أحمد العباسى ثلاثة أيام حتى عقد السلطان بيبرس مجلسا بقاعة الأعمدة فى القلعة لمبايعة الأمير العباسى بالخلافة . وقد حضر ذلك المجلس جمع حافل من القضاة ونواب الحكم والعلماء والفقهاء وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية والتجار ووجوه الناس ، فى حين « جلس السلطان متأدبا » الى جانب الأمير أحمد ، فلم يستخدم كرسيا أو مرتبة أو مسندا . ولما اكتمل الجمع شهد العربان وخادم من البغاددة بصحة نسب الأمير أحمد العباسى ، وأقر هذه الشهادة أيضا بعض القضاة والفقهاء ، قبل قاضى القضاة تاج الدين تلك الشهادات وسجلها ، ثم بايعه بالخلافة .

ولم يكد قاضى القضاة يفعل ذلك حتى تقدم السلطان

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٨ ــ ٤٤٩ .

بيبرس وبايعه أيضـا « على كتـاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها »[1] . وبعد السلطان بايع الخليفة الجديد جميع الناس « على اختلاف طبقاتهم » ، كما كتب بيبرس الى سائر الملوك والنواب خارج مصر لكى يأخذوا البيعة للخليفة العباسى الجديد الذى لقب بلقب المستنصر بالله ؛ وأمرهم بأن يدعى له على المنابر ثم يدعى للسلطان بعده وأن تنقش السكة باسمهما .

والمهم فى أمر تلك الخطـوة — وذلك بالنسبة للسـلطان ومكانته — أنه لم يكد ينتهى من مبايعة الخليفة العباسى الجديد، حتى قام الخليفة بدوره « وقلد السلطان الملك الظـاهر البـلاد الاسلامية » . ومعنى ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس غـدا منذ تلك اللحظة حاكما شرعيا يستمد سـلطانه ونفوذه ومكانته من السلطة الشرعية العليا فى حكم المسلمين وهى الخلافة . وبعبـارة أخرى لم يعد السلطان الظاهر بيبرس يبدو فى نظر المعاصرين فى صورة مغتصب الحكم من بنى أيوب أو حتى من قطـز ، وانما بدا فى صورة السلطان الذى اختاره الخليفة العباسى لحكم البلاد والعباد وقلده فعلا مقاليد الأمور ، لا فى مصر والشام وحدهما ، بل فى البلاد الاسلامية كافة « وما ينضاف اليها وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار » .

وقـد تم ذلك كله يوم الاثنين ثالث عشر جمـادى الأولى

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ق ١ ص ١٨ — ١٩ (مخطوط)
المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٥٠ .

سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) ، وفى يوم الجمعة التـالى مباشرة صلى الخليفة بالناس فى جامع القلعة ودعا فى الخطبـة للملك الظـاهر بيبرس ، فسر الظاهر بذلك « ونثر عليـه جمـلا مستكثرة من الذهب والفضة » . وهكذا قضى الخليفة المستنصر بالله أيامه فى هناء بين ربوع القاهرة ، فتارة يصحبه السلطان للنزهة فى النيل ومشاهدة السفن الحربية وهى تقوم بمناوراتها وألعابها على صفحة الماء ، وطورا يخرج مع السـلطان الى بعض البسـاتين خارج القاهرة ... ثم ان الظاهر بيبرس لم يكتف بكل ذلك وانما أراد أن يجمع جميع أمراء المملكة ويقرأ عليهم تقليد الخليفـة للملك الظاهر فى اجتماع عام . وكان أن عقد ذلك الاجتماع فى المطرية ، وسمع جميع الأمراء تقليد الخليفة للسـلطان « الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجـازية واليمنيـة والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا .. »

ولما فرغ القاضى فخر الدين بن لقمان — صـاحب ديوان الانشاء — من قراءة ذلك التقليد ، أحضرُ للسلطان الظاهر خلعة السلطنة وهى جبة بنفسجية اللون وعمامة سوداء وطوق من ذهب وسيف ، فلبسها بيبرس واتجه فى موكب كبير نحـو القـاهرة ، فدخلها من باب النصر وشق القاهرة الى القلعة وسط الزينـات والأفراح « وضج الخلق بالدعاء بخلود أيامه واعزاز نصره » [١]. وبذلك تحقق لبيبرس ما أراده من وراء هذه المناورة الكبرى من

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٥٧ .

تثبيت دعائم ملكه واحاطة شخصه بهالة من العظمة والسمو داخل مصر وخارجها .

على أن المظاهرة الضخمة التى صحبت احياء الخلافة العباسية فى القاهرة ، لم تحل دون تشكك بعض المؤرخين فى صحة نسب الخليفة المستنصر بالله . من ذلك أن المؤرخ أبا الفدا يقول فى حوادث سنة ٦٥٩ هـ « قدم الى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اسمه أحمد زعموا أنه ابن الامام الظاهر بالله » .. كما يقول أبو الفدا فى موضع آخر « وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود .. » . أما مفضل بن أبى الفضائل فيسمى هذا الخليفة « المستنصر بالله الأسود » [1] . ولا ندرى بالضبط موقف السلطان الظاهر بيبرس من مدى صحة نسب الخليفة الجديد ، لأن كل ما كان يهم السلطان الظاهر هو أن يستغل تلك الأداة التى أتيحت له ليضفى على نفسه وعلى حكمه صبغة شرعية . وما دام هذا الأمر قد تحقق فان بيبرس كان لا يهمه نسب الخليفة أو مستقبل الخلافة فى قليل أو كثير . بل أكثر من هذا ، يبدو أن الظاهر بيبرس سرعان ما أحس — عقب انقضاء موجة الحماسة الأولى التى صحبت احياء الخلافة العباسية فى القاهرة — أنه ليس من مصلحته ولا مصلحة دولة المماليك أن تقوم الى جانبه فى القاهرة سلطة قوية يعتبرها المسلمون كافة السلطة الشرعية فى العالم الاسلامى . لذلك نرى بيبرس — وهو

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢١٣ ، مفضل بن أبى الفضائل: النهج السديد ص ١٠٥ .

الرجل الداهية — يشجع الخليفـة الجـديد المستنصر بالله على الخروج الى بغداد لاستردادها من المغول . وكان المفروض أن يعمل الظاهر بيبرس — وهو خير من يعرف من هم المغول — على تزويد الخليفة بقوة ضاربة كبرى تساعده على الصمود فى وجه أعدائه ، ولكنه تركه يتجه صوب بغداد فى قوة صغيرة أحاط بها المغول وأبادوها وسقط الخليفة المستنصر بالله قتيلا فى المعركة .

ومهما يثقـل فى المراجع من أن الظـاهر بيبرس أظهر أسفه وحزنه لما حل بصديقه الخليفة ، وأن الأموال الطائلة التى أنفقها على الخليفة ذهبت سدى ، فان هذا لا يحول دون اتهامنا لبيبرس بالتفريط فى حياة المستنصر بالله ، وأنه كان يستطيع على الأقل أن يخرج صحبته لمنازلة المغول اذا كان يرغب حقا فى استعادة بغداد منهم .

وهكذا ظل السلطان الظاهر بيبرس يتأرجح بين الرغبـة فى احياء الخلافة العباسية فى القاهرة ليتخذ منها سندا يعتمد عليه فى تثبيت دعائم دولته ، وبين التخوف من خطر وجود تلك الخلافة فى القاهرة بالذات ، لا سيما أن الخليفة العباسى هو الذى قلد السلطان بيبرس مهام الحكم مما جعل السلطان يبدو فى صورة الفرع والخليفة فى صورة الأصل . ولكن بيبرس بدأ السير فى الطريق وأحيا الخلافة فعلا فى القاهرة مما جعل من الصعب عليه أن يتراجع فى مشروعه . وبعبارة أخرى فقد كان السلطان بيبرس مسئولا أدبيا عن اقامة خليفة عباسى آخر بدل الخليفة المستنصر بالله ، كما صار من غير الممكن أمام الرأى العام فى العالم الاسلامى

أن يظل منصب الخلافة العباسية شاغرا فى القاهرة بعد أن أحياه بيبرس . لذلك أرسل السلطان بيبرس فى طلب أمير عباسى جديد هو أبو العباس أحمد ، فلما وصل ذلك الأمير الى القاهرة سنة ١٢٦٢ استقبله الظاهر ، وقرىء نسبه أمام قاضى القضاه والشهود ، وبعد أن ثبتت صحة نسبه بايعه السلطان ، ولقب الخليفة الجديد بلقب الامام الحاكم بأمر الله . ولم يلبث أن أخذ « الناس على اختلاف طبقاتهم فى مبايعته » . أما الخليفة فقد أقبل بدوره على السلطان « وقلده أمور البلاد والعباد وجعل اليه تدبير الخلق » [١] .

على أنه اذا كانت الخلافة العباسية قد عادت الى القاهرة ، فان الظاهر بيبرس لم يفكر فى هذه المرة فى ايفاد الخليفة الجديد لاسترداد بغداد . وفى الوقت نفسه احتاط السلطان بيبرس لمنع تضخم نفوذ الخليفة الحاكم بأمر الله ، فراقبه مراقبة شديدة ولم يسمح له بالظهور فى المناسبات العامة ، وحدّ من حريته ونشاطه : كما حرص على استقدام عدد آخر من أبناء البيت العباسى الى القاهرة ليلوح بهم فى وجه الخليفة الحاكم اذا حدثته نفسه بالخروج عن نطاق الدائرة التى رسمها له بيبرس ، فيسهل عندئذ على السلطان خلعه وتعيين غيره من بنى العباس خليفة . ويفهم مما جاء فى المراجع أن الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى صار شبه محجور عليه فى عهد الظاهر بيبرس ، فلا يتصل به أحد من

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٧٧ .

المسئولين فى الدولة دون اذن السلطان . وقد أنزله بيبرس من القلعة وأسكنه مناظر الكبش التى كان أحمـد بن طولون قد أنشأها ، وحدد له ولأسرته مايكفيهم كل يوم من طعام يصرف لهم . وهكذا وضع بيبرس قواعد السياسة التى اتبعها سلاطين المماليك بمصر تجاه الخلافة العباسية ، فأصبح الخليفة يفوض الأمور العامة الى السلطان ويكتب له عنه عهدا بالسلطنة ، ويدعى له قبل السلطان على المنابر ؛ وفيما عدا ذلك يستأثر السـلطان بشئون الدولة كافة ، فى حين يقتنع الخلفاء بالتردد على أبواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالشهور والأعياد . وقد عبر المقريزى عن ذلك الوضع تعبيرا دقيقا حين قال عن الخليفـة العباسى فى القاهرة بأن خلافته « ليس فيهـا أمر ولا نهى وحسبه أن يقـال له أمير المؤمنين » [1] .

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٣ ص ٣٩٤ .

الفصل الرابع

بيبرس والجهاد

استطاع بيبرس أن يمكن لنفسه فأخضع الثورات وقضى على الفتن والمؤامرات التى اعتاد أن يتعرض لها سلاطين المماليك فى أوائل حكمهم ، ثم دعم مركزه ومركز دولة المماليك باحياء الخلافة العباسية فى مصر . على أنه من الملاحظ — كما سبق أن أشرنا — أن دولة المماليك ولدت وسط ظروف عصيبة ألمت بالوطن العربى فى الشرق الأدنى ؛ فالصليبيون كانوا لا يزالون قابعين فى كثير من مدن الشام يشكلون خطرا واضحا على استقلال الوطن العربى ويمثلون قاعدة كبرى للاستعمار الغربى يمكن أن يستغلها فى ارسال حملات صليبية جديدة الى بلاد الشام . أما المغول الذين انسحبوا الى العراق عقب عين جالوت ، فقد أخذوا يهددون مدن الشام الاسلامية بين حين وآخر بالاغارة والسلب والنهب .

وكان لابد لسلاطين المماليك أن يبرروا ضرورة بقائهم فى الحكم بمواجهة هذه الأخطار والعمل على ازالتها ليشعر المسلمون فى الشرق الأدنى بأهمية المماليك ودولتهم ويرتضوا حكمهم وهيمنتهم على شئونهم . وهنا برز السلطان الظاهر بيبرس ليقوم

بدور البطولة الذى خلد اسمه فى التاريخ ، اذ قضى طوال حكمه فى حركة دائمة بين مصر والشام يحارب الصليبيين حينا والمغول أحيانا حتى قال فيه أحد المعاصرين :

يوما بمصر ويوما بالحجاز وبالشـــ

ـــــام يوما ويوما فى قـــرى حلب

وتبدو براعة السلطان الظاهر بيبرس وبعد نظره السياسى فى أنه حرص دائما على أن يحيط حروبه بسياج من المعـــاهدات والاتفاقيات الدولية الخـــارجية ليضمن تقوية جبهته من ناحية واكتساب أعوان وحلفاء ضد خصومه من ناحية أخرى . من ذلك أن بيبرس سعى الى محالفة الامبراطورية البيزنطية ، وهى العدوة التقليدية للصليبيين بالشام ، لا سيما وأن بيبرس — وهو بصدد الاستيلاء على أنطاكية — كان يدرك أطماع البيزنطيين فى تلك المدينة من ناحية ، والخلاف العميق بين الأباطرة البيزنطيين وأمراء أنطاكية من ناحية أخرى . لذلك أرسل بيبرس أحد أمرائه — وهو الأمير فارس الدين أقوش المسعودى — مبعوثا الى الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوجس ، فأحسن الامبراطور استقبال مبعوث السلطان وأطلعه على جامـــع القسطنطينية الذى كان الامبراطور قد جدده بعد أن خرّبه الصليبيون فى الحملة الصليبية الرابعة . ولم يكتف الامبراطور البيزنطى بذلك بل أرسل الهدايا الى بيبرس ، وعندئذ رد عليه السلطان بأحسن منها ، كما أرسل

الى جامع القسطنطينية الحصر الممتازة والقناديل المذهبة والبسط الفاخرة ، والسجاد والمباخر [1] .

ولم يكتف السلطان بيبرس بمحالفة الامبراطورية البيزنطية استعدادا لما ينوى القيام به ضد الصليبيين فى الشام ، وانما حرص على الاحتفاظ بسياسة الود والتحالف بين حكام جزيرة صقلية من ناحية وسلاطين مصر من ناحية أخرى ، وهى السياسة التى بدأت منـــذ أيام الامبراطور فردريك الثانى والسلطان الكامل الأيوبى . ولذلك أرسل السلطان بيبرس سفارة تحمل الهدايا الى مانفرد ملك صقلية سنة ١٢٦١ ، فرد عليه مانفرد بالمثــل مما قوى أواصر الصداقة بين الطرفين [2] . وقد قويت الرابطة بين بيبرس وجزيرة صقلية فى عهــد شارل الأنجوى — خليفة مانفرد — مما حقق للسلطان الظاهر بيبرس قدرا كبيرا من المكانة فضلا عن احكام حصار الصليبيين بالشام .

أما عن سياسة بيبرس فى الجهاد ، فقد أدرك أن دولته تواجه حلفا قويا يربط اثنين من ألد أعدائه هما الصليبيون ومغــول فارس . وقد تكون الاتجاهات والمصالح الخاصة لهذين الخصمين متباعدة أو متعارضة ، ولكن غاية واحدة ربطت بينهما ، هى العمل على اجتياح البلدان العربية فى الشرق الأدنى . واذا كان السلطان

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٠٢ ب (مخطوط) ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٢٦٢ (مخطوط) .

(٢) العينى : عقد الجمان سنة ٦٥٩ هـ (مخطوطة دار الكتب) .

بيبرس قد أدرك هذه الحقيقة ، فان خطته اتجهت الى القضاء على كل من هذين الخصمين على حدة .

* * *

بيبرس ومحاربة الصليبيين فى الشام :

ومن الواضح أن الصليبيين كانوا أقرب مكانا وأيسر منـالا من المغول ، فضلا عن أن قلاعهم ومدنهم كانت بمثابة جزر متناثرة وسط محيط عربى واسع يخضع معظمه للسلطان بيبرس . ثم ان بيبرس كان يدرك جيدا الدور الذى قام به الصليبيون فى المؤامرات التى حاكها أمراء بنى أيوب لدولة المماليك عند قيامها ، فضلا عن أنه نازلهم فى المنصورة وسبر غورهم وأحاط علما بأسـاليبهم الحربية ، ووقف على حقيقة قوتهم ونشاطهم السياسى . ولهذا كله اختص بيبرس الصليبيين بالجزء الأكبر من جهوده .

وكان بيبرس فى حروبه ضد الصليبيين صريحا غير ملتو ، مما جعل أعداءه يعرفون دائما أغراضه واتجاهاته . ولم تمر سنة من السنوات العشر الواقعة بين سنة ١٢٦١ ، ١٢٧١ دون أن يوجه حملة أو يقوم بغارة على الممتلكات الصليبية بالشام . وفى تلك الأثناء كان يلجأ أحيانا الى توقيع المعاهدات وعقد الهدنات مع الصليبيين اذا أحس بحاجته الى ذلك ، ولكنه لم يجد غضاضة فى أى وقت فى خرق تلك المعاهدات ونقض تلك الهدنات قبـل انقضاء أجلها التقليدى وهو عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام .

وقد بدأ الاحتكاك بين بيبرس والصليبيين عندما أغار بعض أمرائه على أعمال امارة أنطاكية الصليبية سـنة ١٢٦٠ وعندئذ أسرع الصليبيون بارسال رسلهم الى السلطان بيبرس يطلبون الصلح ، فطلب منهم أمورا لم يرتضوها « فأهانهم ! » . على أنه يبدو أن بيبرس لم يشأ أن يقوم بهجوم كبير على الصليبيين فى تلك المرحلة قبل أن يوطد مركزه فى الحكم من ناحية وبسبب اشتداد الغلاء ببلاد الشام من ناحية أخرى [١] .

ولم يلبث أن فرغ السلطان بيبرس من المشكلات الداخلية التى اعترضت قيام سلطنته ، كما فرغ من مشكلة الخلافة العباسية ونجح فى احيائها بالقاهرة ، وعندئذ شرع سنة ١٢٦٣ فى القيـام بهجوم شامل على الصليبيين بالشام « فتوجه بكليته الى الفرنج » . وكان أن اتجه بيبرس من غزة الى جبل الطور قرب عكا ، وعندئذ تملك الصليبيين الخوف فأرسلوا الى السلطان يظهرون التـوبة والتمسك بالهدنة . وبعد أن قرع بيبرس رسل الفرنجة سـألهم « ما تقولون ؟ » قالوا « نتمسك بالهدنة التى بيننا » فرد السلطان « لم لا كان هذا قبل حضورنا الى هذا المكان وانفاق الأموال التى لو جرت لكانت بحارا ؟ » . وهكذا أخذ رسل الصليبيين يتذللون لبيبرس ويطلبون « مراحم السلطان » ويتعهـدون بفك أسرى المسلمين والمحافظة على العهود والمواثيق ؛ ولكن بيبرس لم يرق لاستعطافاتهم ورد عليهم قائلا : «كان هذا قبل خروجى من مصر فى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٦٤ .

هذا الشتاء وهذه الأمطار ، ووصول العساكر الى هنا » . وكان أن قام بيبرس بعدة هجمات محلية على الصليبيين ، قصد بها الى كشف مواضع القوة والضعف فيهم ، فأرسل الأمير علاء الدين طيبرس على رأس قوة الى الناصرة فهدموا كنيستها دون أن « يتجاسر أحد من الفرنج أن يتحرك » . كذلك وجه السلطان الأمير بدر الدين الأيدمرى ومعه قوة الى عكا فأغاروا عليها مرتين ، اقتحموا أبوابها فى المرة الأولى وغنموا عددا كبيرا من المواشى فى المرة الثانية . ولم يكتف بيبرس بذلك بل غادر منطقة الطور الى عكا ذاتها لاختبار تحصيناتها بنفسه . ويروى المؤرخون أن بيبرس طاف بأسوار عكا من ناحية البر وكلف بعض رجاله بحصار برج للصليبيين كان قريبا منها فشرعوا فى نقبه ، ثم عاد السلطان بعد ذلك فى اليوم نفسه . ولم يكد السلطان بيبرس يعود الى الطور حتى علم بأن الصليبيين شرعوا فى حفر الخنادق واقامة تحصينات قرب عكا ؛ فخرج ثانية الى عكا وردم رجاله الخنادق التى حفرها الصليبيون ، وهدموا الأبراج المحيطة بها وحرقوا ما حولها من أشجار كما هاجموا أبواب عكا . وربما أدى هروب الصليبيين داخل أسوار عكا الى اثارة مطامع بيبرس فى الاستيلاء على المدينة عندئذ ، ولكنه يبدو أنه لم يكن مستعدا فى تلك المرة للقيام بذلك العمل الحربى الكبير ، لا سيما وأن المقريزى اعترف بأن السلطان انما قصد من تلك الأعمال الحربية « كشف مدينة عكا ، فان الفرنج كانوا يزعمون أن أحدا لا يجسر أن يقرب منها » [1] . ولذلك

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٨٨ .

لم يطل مقام بيبرس أمام عكا ، وأخذ يتجول بين المعاقل الصليبية فى فلسطين « وكشفها مكانا مكانا » ، فانتقل الى الناصرة وشاهد خراب كنيستها ، ثم رحل الى القدس وأمر بعمارة المسجد الأقصى ، وانتقل الى الكرك واستولى عليه وحصنه وزوده بالسلاح والأقوات .

وبعد ذلك عاد بيبرس الى مصر حيث قام بجولة تفتيشية فى أغسطس سنة ١٢٦٣ فى البحيرة والاسكندرية . ثم قام السلطان سنة ١٢٦٤ بجولة تفتيشية فى الغربية كما زار دير وادى النطرون والاسكندرية مرة أخرى .

وبينما السلطان يتلهى برياضة رمى البندق فى العباسة بالشرقية وردت اليه الأخبار باغارة المغول على البيرة ، فعاد الى القاهرة وأرسل الأمير عز الدين ايغان على رأس أربعة آلاف فارس الى الشام ، ثم تلاه الأمير جمال الدين المحمدى على رأس أربعة آلاف أخرى . وفى ٢١ يناير سنة ١٢٦٥ خرج الظاهر بيبرس نفسه الى الشام ، وهناك علم بارتداد المغول عن البيرة ، فاستقر رأيه على مهاجمة الصليبيين . وقد بدأ بيبرس بمهاجمة قيسارية فأمسك المطرقة ووقف بنفسه وسط جنده يعمل فى هدم سورها حتى « تجرحت يده » . وكان لويس التاسع قد عنى بتحصين قيسارية أثناء اقامته بالشام ، لذلك اهتم بيبرس بنصب المجانيق على أسوارها ، وهاجم المدينة على حين غفلة من أهلها ، فنجح رجاله فى حرق أبوابها واقتحامها ، وعندئذ فر أهل قيسارية الى قلعة المدينة « وكانت من أحسن القلاع وأحسنها » . على أن بيبرس

أظهر همة كبيرة فى مهاجمة القلعة ، وكان يخرج بنفسه وبيده ترسه للقتال فيعود آخر النهار وفى ترسه عدة سهام . وهكذا لم يكد يمر أسبوع حتى سلمت قلعة قيسارية فى ٥ مارس سنة ١٢٦٥ « فتسلق المسلمون من الأسوار ، وحرقوا الأبواب ودخلوها من أعلاها وأسفلها ، وأذن بالصبح عليها »[1] . ثم ان قيسارية كانت بحكم موقعها تهدد مواصلات المسلمين بين مصر والشام وتشل حركاتهم الحربية فى فلسطين ، لذلك عزم بيبرس على هدمها ، فقسم المدينة على الأمراء وعهد الى كل منهم بهدم جزء منها ، وشارك بيبرس نفسه فى تلك العملية فأخذ المطرقة « وهدم بنفسه » .

وفى الوقت الذى كان المسلمون يحاصرون قلعة قيسارية أرسل السلطان بيبرس تجريدة من عسكره بقيادة الأمير شهاب الدين القيمرى الى بيسان ، كما سير جماعة من العربان والتركمان الى عكا فوصلوا الى أبوابها ، وأسروا جماعة من الصليبيين . ولم يكتف بيبرس بذلك بل أرسل قسما من جيشه الى حيفا ، ففر الصليبيون من المدينة وقلعتها ولاذوا بسفنهم ، وعندئذ ضرب المسلمون حيفا وقلعتها وأحرقوا أبوابها وعادوا بالأسرى والغنائم سالمين . أما بيبرس نفسه فقد اتجه فى تلك الأثناء الى عثليث فخربها وقطع ما حولها من أشجار ثم عاد الى قيسارية .

وبعد ذلك جاء دور أرسوف ، وهى قلعة حصينة تقع الى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٢٧ .

الجنوب من قيسارية . ويبدو أن بيبرس أراد أن يستفيد من عنصر المباغته فى مهاجمة أرسوف ، فسار اليها « من غير أن يعرف أحد قصده » ، ونقل اليها كمية ضخمة من الأحطاب . وقد بدأ بيبرس بحفر سربين وبعض الخنادق حول المدينة لاحكام حصارها ، وردم الخنادق بالاحطاب ، وعندئذ تحايل الفرنج وأحرقوها كلها . ولكن بيبرس لم ييأس ، فأستأنف حفر الخنادق والأسراب حول أرسوف وأظهر فى ذلك العمل اصرارا كبيرا وشجاعة نادرة استرعت انتباه المؤرخين « فكان يمشي بمفرده وفى يده ترس ، تارة فى السرب وتارة فى الأبواب التى تفتح ، وتارة على حافة البحر يرامى مراكب الفرنج . وكان يجر فى المجانيق ويطلع فوق الستائر يرمى من فوقها ، ورمى فى يوم واحد ثلثمائة سهم بيده . وحضر فى يوم الى السرب وقعد فى رأسه خلف طاقة يرمى منها ، فخرج الفرنج بالرماح وفيها خطاطيف ليجذبوه ، فقام وقاتلهم يدا بيد .. حتى قتل فارسين من الفرنج . وكان يطوف بين العساكر فى الحصار بمفرده ولا يجسر أحد ينظر اليه ولا يشير اليه بأصبعه !! » [١]

وقد بلغ من حماسة المسلمين فى حصار أرسوف أن شاركت النساء الرجال فى الجهاد ، ولم تكتف النساء الصالحات بالعمل فى سقاية الماء وسط القتال ، بل كن يعملن فى جر المجانيق . وهكذا حتى سقطت أرسوف فى ٢٦ أبريل فلم يشعر الصليبيون الا بالمسلمين قد تسلقوا القلعة ورفعوا أعلامهم عليها وأسروا من

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٢٨ ـ ٥٢٩ .

فيها . وكان أن استعمل بيبرس أسرى الصليبيين فى أرسوف فى هدم مدينتهم وتخريب حصونهم بأيديهم . وقبل أن يغادر بيبرس بلاد الشام الى مصر أقطع أمراءه الأراضى والبلاد التى انتزعها من الصليبيين ، وكتب بذلك مكتوبا جامعا استهله بعد الصلاة والسلام والشكر باستعراض قوته وقوة جيوشه وحرصه على الجهاد وخدمة الدين حتى « جعل الله سيوفه مفاتح للبلاد ، وأعلامه أعلاما من الأسنة على رأسها نار بهداية العباد ، فانه آخذ البلاد ومعطيها ، وواهبها بما فيها » [1] .

وصل بيبرس القاهرة عائدا من الشام يوم ٢٩ مايو سنة ١٢٦٥ ولكنه لم يستطع البقاء طويلا بعيدا عن مسرح القتال بعد أن ملكت فكرة الجهاد كل أحاسيسه ومشاعره . لذلك لم يلبث أن عاد بيبرس الى الشام قبل أن ينقضى عام على عودته الى القاهرة ؛ فغادر مصر فى ١٢ مايو سنة ١٢٦٦ قاصدا الخليل ومنها اتجه الى عين جالوت حيث قام أمراؤه ببضع اغارات استكشافية على الامارات الصليبية المجاورة مثل صور وصيدا . وكان الظاهر بيبرس قد بلغه أن بوهيموند السادس أمير أنطاكية أغار على مدينة حمص ، فأرسل اليها جيشا بقيادة الأميرين جمال الدين أيدغدى العزيزى وسيف الدين قلاوون الألفى . أما بيبرس نفسه فقد اتجه الى عكا ومنها الى صفد حيث تجمعت كل جيوشه العاملة ببلاد الشام .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ق ٢ ورقة ٢٧٧ ـ ٢٨٠ (مخطوط) .

وهنا أيضا أظهر السلطان بيبرس همة كبرى وشجاعة نادرة ، فاستقدم المجانيق من دمشق الى صفد ، ولما عجزت الجمال عن حملها حملها الأجناد والأمراء على الرقاب ، وأخذ السلطان يعمل بنفسه فى جـر الأخشاب « مـع البقر » . وربما تعب الناس واستراحوا ليواصلوا جر الأخشاب ، فى حين كان بيبرس نفسه « لا يسأم من الجر ولا يبطله » . ولم يلبث أن اشتد القتال ، فأظهر المسلمون بقيادة بيبرس شجاعة نادرة ، وفى الوقت نفسه استمات الداوية — أصحاب صفد — فى الدفاع عنها . وقد حرص بيبرس على أن يقيم مستشفى حربيا متنقلا لاسعاف جرحى المسلمين وعلاجهم ، فنصب خيمة كبيرة جعـل فيها الأطبـاء والجراحين والأدوية ، وصار ينقل اليها كل من يجرح من المسلمين . وأخيرا عجز الصليبيون داخل صفد عن مقاومة هجمات بيبرس فاضطروا الى التسليم فى ٢٣ يونية سنة ١٢٦٦ وطلبوا الأمان ، وعندئذ أمنهم بيبرس واشترط عليهم ألا يخرجوا بمال أو سلاح وألا يتلفوا شيئا من ذخائر القلعة [١] . وعند خروج حامية صفد أمر السلطان بتفتيش رجالها ، فوجد معهم ما يناقض الأمان من السلاح والمال فضلا عن بعض أسرى المسلمين أخرجوهم معهم على أنهم نصارى . لذلك تحلل بيبرس من الأمان الذى أعطاه لهم ، وأمـر بضرب أعناقهم فقتلوا جميعا — ما عدا اثنين — على تل قريب من صفد . وقد أثار ما فعله بيبرس بحامية صفد استياء المؤرخين الأوربيين

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ١٤٩ .

الذين رأوا فى هذا العمل مثلا جديدا على تأصل روح الغدر فى خلق بيبرس [١] ، فى حين رأى بعض المؤرخين العرب الذين ناقشوا ذلك الموضوع أن نص الأمان الذى منحه بيبرس لحامية صفد يشترط تفتيشهم عند خروجهم ، وأن الصليبيين هم الذين أذنبوا ونقضوا شرط الأمان فحق عليهم ما حل بهم [٢] .

ومهما يكن من الأمر ، فقد أمر بيبرس بتخريب قلعة صفد بعد أن استولى عليها ؛ ثم عاد فى العام التالى وأعاد بناءها ليتخذها مركزا للهجوم على الصليبيين فى أعماله الحربية المقبلة ضدهم . وجدير بالذكر أن بيبرس لم يكتف بالمشاركة بنفسه فى تعمير القلعة ، وانما حرص على كتابة بضع عبارات على أسوارها تتضمن سجل جهاده ضد الصليبيين ، ولقب نفسه بألقاب « سلطان الاسلام والمسلمين .. سيد التتار ، فاتح القلاع والحصون والأمصار ، وارث الملك ، سلطان العرب والعجم والترك ، اسكندر الزمان ، صاحب القرآن أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين .. » [٣] .

وبعد أن استدعى بيبرس بعض أهالى دمشق للاقامة بصفد

---

(١) King : The Knights Hospitallers, p. 261 & Muir : The Mamluke or Slave Dynasty, p. 22.

(٢) محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس ص ٨٢ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ق ١ ص ١٣٦ ــ ١٣٨ (مخطوط) .

وتعميرها وبنى بها جامعين [١] ، اتجه الى دمشق ولم يسمح لجنده بدخولها ، بل تركهم خارجها حتى وجههم فى حملة ضد أرمينيا الصغرى سنة ١٢٦٥ ، كما سيلى فيما بعد . أما بيبرس نفسه فقد استولى على هونين وتبنين والرملة ، كما أدب أهل قرية قارا المسيحيين الذين أخذوا يعتدون على المسلمين فى الضياع المجاورة . وأخيرا عاد بيبرس الى القاهرة فوصلها فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٢٦٦ .

ولم تطل اقامة بيبرس فى مصر فى تلك المرة ، اذ لم يلبث أن غادرها فى ٢٥ مارس سنة ١٢٦٧ قاصدا غزة . ويبدو أن الصليبيين صار يتملكهم الفزع كلما سمعوا بحضور بيبرس الى الشام ، فأسرعت رسلهم اليه فى غزة « ومعهم الهدايا وعدة من أسرى المسلمين » . وقد اختار بيبرس أن يبدأ تلك المرة بالهجوم على عكا ، فلجأ الى حيلة حربية ليأخذ أهلها على غرة ، وذلك بأن ألبس بعض جنوده ملابس فرسان الداوية وألبس البعض الآخر ملابس

---

(١) عن الحكمة من بناء مسجدين فى مدينة واحدة ، يذكر الدكتور زكى محمد حسن : « والمعروف أن المساجد الأولى ذات الأروقة كانت لاتمكن بعض المصلين من سماع الخطب ورؤية الامام ، ولاسيما اذا كان السقف محمولا على اكتاف من البناء ، بينما كانت رؤية الامام وسماع الخطيب أيسر فى المدارس ذات الايوانات المتعامدة ... ... لذلك كان بعض سلاطين المماليك ـ كالظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاون يشيد مسجدين : أحدهما على نظام المدرسة ويبنى فى قلب المدينة قريبا من الطلاب ، والآخر على النظام القديم ذى الأروقة ويبنى فى أطراف المدينة لغرض الصلاة والعبادة فحسب » . (زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٢٤) .

الاسبتارية . وكان أن نجحت الخطة فلم يشعر الصليبيون بالمسلمين الا وهم على أبواب عكا ، وعندئذ وضع بيبرس السيف فيهم « وصارت الرءوس تحمل اليه من كل جهة » . ولم تلبث معظم القوى الصليبية ببلاد الشام أن أسرعت بارسال مندوبيها الى السلطان بيبرس تعتذر وتعلن التوبة والندم وتطلب الصلح . غير أن بيبرس اتبع سياسة مكيرة ناجحة ازاء تلك القوى فلم يرفض طلبها جميعا فى الصلح حتى لا تتكتل ضده ، وفى الوقت نفسه لم يجبها جميعا الى طلب الصلح ، وانما اختار أن يعقد الصلح مع بعضها دون البعض الآخر حتى يتمكن من القضاء عليها واحدة بعد أخرى . وفعلا عقد بيبرس الصلح مع أمير بيروت وصاحب صور ، فضلا عن فرسان الاسبتارية فى حصن الأكراد وفى المرقب . وقد حددت مدة الهدنة مع جميع هذه القوى بمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات [١] .

وبعد أن عاد بيبرس الى القاهرة علم بتحرك التتار على حلب فأسرع بمغادرة القاهرة فى ١٩ فبراير سنة ١٢٦٨ قاصدا الشام . غير أن بيبرس اختار أيضا فى تلك المرة أن يبدأ بالصليبيين ، فحاصر يافا وملكها ، وعندئذ أخذ قلعتها وهدمها وأرسل أخشابها ورخامها الى القاهرة حيث استعمل الخشب فى بناء مقصورة الجامع الظاهرى بالحسينية ، ومن الرخام صنع محراب ذلك الجامع . وبعد ذلك اتجه بيبرس نحو الشقيف أرنون — وهو من الحصون

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣١ ــ ٣٩ .

القوية التى كانت لفرسان الداوية بالشام — فجد فى حصاره .

وهنا أيضا تروى المصادر العربية قصة تدل على ذكاء بيبرس وسعة حيلته ، اذ وقع فى يده وهو قائم على حصار الشقيف خطاب مرسل من الصليبيين الى اخوانهم بالشقيف يحثونهم فيه على الثبات والمقاومة حتى لا يتمكن المسلمون من أخذ الحصن . ولم يكد بيبرس يطلع على مضمون هذه الرسالة حتى استدعى من يكتب بالفرنجية وكلفه بأن يكتب رسالة الى أهل الشقيف تحوى الامارات التى استفادها من الخطاب الذى وقع فى يده ، ويتضمن هذا الخطاب تحذيرا من أهالى عكا الى مقدم الشقيف من بعض أعوانه كما أرسل بيبرس خطابا آخر بالطريقة نفسها الى أولئك الأعوان يحذرهم من مقدم الشقيف . وهكذا دب الشقاق بين الصليبيين بعضهم وبعض داخل الشقيف واتقسموا على أنفسهم فى الوقت الذى اشتد حصار المسلمين عليهم جميعا . ولم يلبث أن سير الصليبيون رسلهم الى السلطان الظاهر يطلبون تسليم الحصن فتسلمه بيبرس فى ١٥ أبريل سنة ١٢٦٨ (١) .

ولعل من الواضح لنا أن نبين كيف أخذ بيبرس يفيد فى تلك الفترة من خطته التى استهدفت مهادنة بعض القوى الصليبية دون البعض الآخر . فاذا كان بيبرس قد هادن الاسبتارية فانه رفض أن يهادن الداوية مما جعله مطلق اليد فى مهاجمة الداوية بحصن المرقب وهو آمن من جانب أية مساعدة يقدمها لهم اخوانهم

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ١٦٤ .

الاسبتارية . واذا كان بيبرس قد هادن بيروت وصور ، فانه حرص على عدم مهادنة عكا وطرابلس وأنطاكية مما أتاح له ميدانا للعمل ضد الصليبيين فى سواحل بلاد الشام الشمالية والجنوبية . وفعلا لم يكد السلطان بيبرس يفرغ من الاستيلاء على حصن الشقيف أرنون حتى اتجه شمالا ، فمر قرب بانياس وقصد طرابلس حيث أغار على ضواحيها والجهات القريبة منها « وغنموا شيئا كثيرا وأخذوا عدة مغاير بالسيف » . وسرعان ما أفزعت هذه الأحداث أمراء الصليبيين فى الحصون والقلاع المجاورة فأسرعت صافيتا وأنطرسوس الى تقديم فروض الولاء والطاعة للسلطان . ثم استأنف بيبرس سيره ، فمر بحمص وحماه دون أن يعرف أحد حقيقة مقصده . وأخيرا وصلت جيوش بيبرس الى أنطاكية فأحاطت بها من كل جانب ، وعندئذ اتضحت نية السلطان فى الاستيلاء على هذه المدينة .

والمعروف أن أنطاكية مدينة كبيرة قوية التحصين ، سبق أن عجز الأباطرة البيزنطيون أنفسهم عن أخذها من الصليبيين ؛ لذلك اختار بيبرس أن يكتب الى الصليبيين فى أنطاكية « يدعوهم وينذرهم بالزحف عليهم ، وفاوضهم فى ذلك مدة ثلاثة أيام وهم لا يجيبون » [1] . وكان أن أخذ بيبرس فى شن هجوم عام على المدينة ، حتى نجح رجاله فى اقتحامها وعندئذ فرت الحامية الصليبية وعددها ثمانية آلاف الى القلعة وأرسلوا يطلبون الأمان

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٩٤ (مخطوط) .

فأمنهم السلطان . وهكذا تم استيلاء بيبرس على أنطاكية فى أواخر مايو سنة ١٢٦٨ ، فدمرها وأحرق قلعتها وقتل كثيرا من أهلها ثم قسم الغنائم الضخمة على رجاله وأفراد جيشه . ولم يفت بيبرس أن يكتب رسالة الى الأمير بوهيموند السادس صاحب أنطاكية وطرابلس — وكان عندئذ مقيما فى طرابلس — بذلك الأسلوب التهكمى اللاذع الذى اشتهرت به رسائله — يخبره بما حل بمدينته ورجاله [١] .

والواقع ان استيلاء بيبرس على أنطاكية كان أعظم فتح حققه المسلمون على حساب الصليبيين فى بلاد الشام منذ استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ١١٨٧ . لذلك كان فرح المسلمين بذلك الفتح عظيما ، وكتبت البشائر الى الأقطار الشامية والمصرية حيث أقيمت الزينات والأفراح . أما بالنسبة للصليبيين فقد كان ضياع أنطاكية أعظم من مجرد كارثة حربية ، لأنه بصرف النظر عما لهذه المدينة من مكانة كبرى فى تاريخ المسيحية الأول ، فانه لا يخفى علينا أن أنطاكية كانت من أولى الامارات التى أسسها الصليبيون فى الشرق فى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٨ وأنها منذ ذلك الوقت ظلت بمثابة القلعة الكبرى للصليبيين فى بلاد الشام . لذلك جاء سقوطها على يد بيبرس سنة ١٢٦٨ ايذانا بانهيار البناء الصليبى بالشام ، واعلانا لحركة الجهاد الكبرى التى

---

(١) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٩ ــ ٥٤٢ (مخطوط) .

شنها سلاطين المماليك ضد الصليبيين ، وهى الحركة التى لم تنته الا سنة ١٢٩١ بطرد آخر البقايا الصليبية من الشام .

فلا عجب اذا وقع نبأ استيلاء بيبرس على أنطاكية وقع الصاعقة على رءوس الصليبيين ، فأسرعت بعض القوى الصليبية المجاورة الى الاستسلام والفرار بحياتها ، فى حين لجأ البعض الآخر الى استرضاء السلطان بيبرس وكسب عفوه ووده . من ذلك أن فرسان الداوية فى حصن بغراس فروا منه وتركوا الحصن خاليا فاستولى عليه جند بيبرس ووجدوه عامرا بالذخائر والأموال . أما صاحب عكا فقد أسرع الى طلب الصلح وأرسل رسله الى بيبرس يحملون الهدايا ، فتم الاتفاق على هدنة لمدة عشر سنوات ، على أن تكون أعمال عكا مناصفة بين بيبرس وصاحبها ، فى حين تظل حيفا للصليبيين ويستولى السلطان على المرتفعات المحيطة بصيدا . ويذكر المقريزى أن السلطان بيبرس أرسل أحد القضاة وأحد الأمراء ليستحلفا صاحب عكا على الصلح السابق ، وأوصاهما السلطان ألا يتواضعا لصاحب عكا فى جلوس أو مخاطبة . فلما دخلا على صاحب عكا لم يجلسا على الأرض حتى وضع لهما كرسيين جلسا عليهما قبالته ، ومد الوزير يده ليأخذ كتاب السلطان فرفضا اعطاءه اياه حتى مد صاحب عكا نفسه يده وأخذه ، ولما امتنع عن الموافقة على بعض أشياء تركاه وغادا الى السلطان(١) .

وهنا أيضا يلاحظ أن بيبرس هادن بعض القوى الصليبية بالشام — مثل عكا — ولم يهادن البعض الآخر مثل صور .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٧١ .

لذلك أغار السلطان على صور فى يولية سنة ١٢٦٨ ، وهو فى طريقه من دمشق الى القاهرة ، وغنم المسلمون من تلك الاغارة مغانم كثيرة [١] . ولم يشأ بيبرس فى تلك المرة أن يحمل أهل القاهرة أعباء اقامة الزينات ابتهاجا بسلامة وصوله وانتصاراته على الصليبيين والاستيلاء على أنطاكية ، فدخل السلطان القاهرة (٣٠ يوليو ١٢٦٨) فى هدوء « وحمل عن الناس كلفة الزينة » .

على أن بيبرس كان لا يستطيع البقاء فى مكان واحد ، اذ اعتاد الحركة الدائمة والتنقل بين أجزاء دولته الواسعة ؛ فهو لا يحضر الى مصر الا ليعود الى الشام ، ولا يذهب الى الشام الا ليتنقل بين أنحائها مجاهدا الصليبيين والمغول على السواء . لذلك لم تمض أشهر قليلة على مجىء بيبرس الى القاهرة حتى عاد الى الشام فى فبراير سنة ١٢٦٩ ، فمر بغزة وأرسوف ثم اتجه الى دمشق لمقابلة رسول أبغا بن هولاكو . وبعد أن قام بيبرس بجولة تفتيشية سريعة زار فيها الصبيبة والشقيف وصفد ، خطر له فجأة أن يعود الى مصر متخفيا ليقف على سير الأمور فيها أثناء غيابه . وبعد أن نفذ بيبرس غرضه وقام بعملية تفتيش مفاجئة فى مصر ، عزم على أداء فريضة الحج بعد أن عهد الى ابنه السعيد بركة بادارة شئون الدولة فى غيابه . وهنا أيضا اختار بيبرس أن يحيط خروجه الى الحجاز بالسرية التامة فتظاهر بأنه قصد الكرك ليتصيد « ولم يجسر أحد يتحدث بأنه متوجه الى الحجاز » . ويروى

---

(١) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ٥٤٩ ـ ٥٥٠ (مخطوط) .

المقريزى أن أحـد الأمراء كتب الى بيبرس يخبره بأنه يشتهى مصاحبته الى الحجاز ، فأمر السلطان بقطع لسانه « فما تفوه أحد بعدها بذلك » [1] .

وقد أفاضت المراجع فيما أظهره السلطان بيبرس أثناء حجه من ضروب البر والتقوى ، ففرّق الكثير من المال سرا ، ووزع الكساوى على أهل الحرمين « وصار كواحد من الناس لا يحجبه أحد ولا يحرسه الا الله ، وهو منفرد يصلى ويطوف ويسعى .. » . وبعد أن قضى مناسك الحج وزار المدينة أسرع بالعودة الى الكرك فوصلها فى ٣٠ أغسطس ١٢٦٩ ومنها اتجه الى دمشق . ويبدو أن بيبرس لم يشأ أن يأتى الى مصر مباشرة وانما قام بزيارة سريعة لحلب للتفتيش على قلعتها ثم رجع الى دمشق ومنها الى القاهرة عن طريق القدس والخليل .

وبعد أن قام بيبرس بزيارة سريعة لمدينة الاسكندرية عاد الى بلاد الشام فى ١٨ نوفمبر سنة ١٢٦٩ بعد أن سمع بغارة التتار على الساجور قرب حلب ، فوصل دمشق فى ٤ ديسمبر . وكان السلطان قد سمع بما كان هناك من اتصالات بين الصليبيين والمغـول تستهدف عمل تحالف بين الفريقين ضد المسلمين وسلطنة المماليك . وفعلا تشير المراجع المعاصرة الى وصول بعض الصليبيين من الغرب — من أرغونة — وأن هؤلاء بعثوا الى أبغا للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين [2] . ويبدو أن وصول هذه الجموع الصليبية من

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٨٠ـ ٥٨١ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ١٠٠ (مخطوط) .

الغرب رفع الروح المعنوية عند الصليبيين ببلاد الشام ، فحاولوا الاغارة على صفد ولكنهم هزموا شر هزيمة .

ومهما يكن من الأمر ، فانه لم يعد بوسع بيبرس أن يصبر على جرأة الصليبيين ففكر فى توجيه ضربة قوية لهم فى شمال بلاد الشام ، ولكنه رأى أن يحتاط بمهادنة الاسماعيلية الذين امتلكوا كثيرا من القلاع فى تلك الجهات والذين ربطتهم روابط عديدة بالصليبيين فى ذلك الوقت . ويعتبر المؤرخون الصلح الذى تم بين بيبرس والاسماعيلية عندئذ نصرا دبلوماسيا رائعا لأنه أمن السلطان من ناحية تلك الفئة الهدامة وجعله يوجه كل جهوده ضد الصليبيين وحلفائهم المغول (١)

وبينما السلطان بيبرس يستعد بدمشق فى ربيع سنة ١٢٧٠ ، اذا بالأخبار تصل الى مسامعه بخروج لويس التاسع ملك فرنسا من بلاده على رأس حملة صليبية جديدة لا يعرف أحد حقيقة مقصدها . لذلك خشى بيبرس أن يكرر لويس التاسع محاولته لغزو مصر ، فاهتم بانشاء السفن والشوانى ، وعاد مسرعا الى القاهرة فى ٢٥ مايو ليستعد لمواجهة الموقف الجديد . على أن الأخبار لم تلبث أن وردت بنزول لويس التاسع فى تونس ؛ وعندئذ لم تفتر همة بيبرس عن مساعدة تونس ، فأرسل الى صاحبها بمسير النجدة اليه ، كما كتب الى عربان برقة والغرب بالاسراع لنجدة صاحب تونس ، وأمر بحفر الآبار فى الطرقات ليعتمد عليها العساكر الخارجين من مصر الى تونس . وقبل أن

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 421.

تكتمل كل هذه الاجراءات وصلت الأخبار الى مصر بمقتل لويس التاسع وتشتت حملته فى تونس ، وعندئذ أفاق بيبرس من ناحية ذلك الخطر وعاد من جديد ليفكر فى أمر الصليبيين بالشام .

وكان أن اتجه بيبرس فى ٢٥ سبتمبر الى عسقلان ليهدم ما بقى من تحصيناتها خوفا من احتلال الصليبيين لها واستغلالها فى تهديد فلسطين ومصر . ثم عاد بيبرس الى القاهرة ليغادرها مرة أخرى الى الشام فى ٢٤ يناير ١٢٧١ ، فقصد دمشق ومنها انتقل الى اقليم طرابلس . والواقع ان بوهيموند السادس أمير طرابلس كان أقوى أمراء الصليبيين فى الشرق عندئذ مما جعل بيبرس يعمل حسابا لخطره ويسعى لتقليم أظافره . ولم يكف أن بيبرس انتزع أنطاكية من ذلك الأمير سنة ١٢٦٨ وانما أراد أن يسترد منه طرابلس أيضا ليحرمه من قاعدة نفوذه ومركز قوته .

غير أن بيبرس كان يدرك جيدا مدى حصانة طرابلس وقوتها ، ولذا لم يشأ أن يبدأ بمهاجمتها الا بعد أن يستولى على بعض الحصون والمعاقل الصليبية الهامة المحيطة بها ليسهل عليه بعد ذلك أحكام الحصار حول طرابلس ذاتها . وكان أن بدأ بيبرس بالاستيلاء على صافيتا التى كانت تابعة للداوية ، كما استولى على بعض الحصون والأبراج المجاورة مثل تل خليفة وغيره . وفى فبراير سنة ١٢٧١ شرع السلطان بيبرس فى مهاجمة حصن الأكراد وهو من أقوى الحصون وأمنعها ببلاد الشام وكان تابعا لفرسان الاسبتارية ، فهاجمه السلطان فى شدة وعنف حتى اضطرت حاميته الى التسليم فى أوائل أبريل . وتشير المراجع الصليبية المعاصرة

الى أن بيبرس اســتولى على حصن الأكراد عن طريق الحيلة ، اذ أرسل الى رجال حامية الحصن رسالة مزورة باللغة الفرنجية وأحسن سبكها حتى بدت فى صورة أمر من مقــدم الفرســان الاسبتارية الى رجال الحامية يأمرهم فيه بالتسليم للسلطان [1] . وعلى الرغم من عدم وجود اشارة فى المراجع العربية الى تلك الخدعة التى استولى بها بيبرس على حصن الأكراد ، اذ تجمع كلها على أن السلطان « أخذ القلعة عنوة » ، الا أنه لا يوجد ما يمنعنا من الاعتقاد فى صحة الرواية الصليبية ، لا سيما وأن بيبرس سبق أن اتبع أسلوب الرسائل المزورة فى الاستيلاء على حصن الشقيف أرنون سنة ١٢٦٨ كما سبق أن ذكرنا .

ولا أدل على أهمية حصن الأكراد وأثر سقوطه فى نفوس القــوى الصليبية المجاورة ، من أن مقــدم فرسان الداوية فى أنطرسوس أسرع الى طلب الصلح من السلطان ، كذلك أرسل فرسان الاسبتارية فى حصن المرقب يطلبون الصلح ، فصــالحهم بيبرس على أن يكون له نصف ما يتحصل من بلادهم ، وعلى أن تكون الهدنة بين الطرفين لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام [2] .

وهكذا أخذت دائرة الحصار تضيق على طرابلس تدريجا ، فاتجه بيبرس الى حصن عكار شمالى طرابلس وشدد الهجوم عليه فى أواخر أبريل سنة ١٢٧١ حتى اضطرت حامية الحصن الى

---

(١) King : The Knights Hospitallers p. 270.

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

التسليم ، ولم يبق بعد ذلك أمام بيبرس سوى مهاجمة طرابلس نفسها ، فأرسل كتابا الى بوهيموند السادس صاحبها يذكره بما حدث لحصن الأكراد وحصن عكار ويطلب منه أن يتدبر موقفه ويسلم طرابلس قبل أن يندم حيث لا ينفع الندم « فنعرّف كنائسك وأسوارك أن المنجنيقات تسلّم عليها الى حين الاجتمـاع عن قريب ، وتعلم أجساد فرسانك أن السيوف تقول انها عن الضيافة لا تغيب ، لأن أهل عكار ما سدوا لها جوعا ، ولا قضت من ريّها بدمائهم الوطر ، وما أطلقوا الا لما عاقب شرب دمائهم ، وكيف لا وثلاثة أرباع عكار عكر ! ؟ » [1] .

وقد شرع السلطان بيبرس فعـلا فى الاستعداد لمهاجمـة طرابلس ، عندما بلغه أن الأمير ادوارد الانجليزى (الذى صـار فيما بعد ادوارد الأول ملك انجلترا) وصل الى عكا على رأس بضع مئات من الفرسان بقصد الحج الى بيت المقدس . ويبدو أن وصول ذلك الأمير أثار مخاوف بيبرس ، اذ خشى أن تكون تلك الحركة مقدمة لحملة صليبية كبيرة فى طريقها الى الشام ؛ لذلك قبل بيبرس العرض الذى تقـدم به بوهيموند السادس صاحب طرابلس وتم عقد الصلح بين الطرفين على أن تكون الهدنة لمدة عشر سنين .

والواقع ان الاتفاقية السابقة التى عقدها بيبرس مع صاحب طرابلس جاءت بمثابة فصل الختام فى حركة الجهاد الكبرى التى

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٢٥٦ ب (مخطوط) .

بدأها بيبرس ضد الصليبيين بالشام . واذا كان بيبرس قد قام بعد ذلك ببعض أعمال حربية ضد الصليبيين ، فان هذه الأعمال اتخذت صفة محلية محدودة الأثر والأهمية . علـى أن بيبرس لم يكد يفرغ من الاتفاقية السابقة حتى قام بعملين حربيين هامين سنة ١٢٧١ ، أولهما الاستيلاء على حصن العليقة من الاسماعيلية ، وثانيهما ارسال حملة بحرية لتأديب صاحب جزيرة قبرس ؛ الأمر الذى يتطلب منا الكلام عن علاقة بيبرس بالاسماعيلية فى بلاد الشام من ناحية وعن علاقته بجزيرة قبرس من ناحية أخرى .

* * *

بيبرس والباطنية :

أما عن الاسماعيلية فينسبون الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، الذى نجح أتباعه فى اقامة الدولة الفاطمية بعد وفاته بعدة قرون . ومن أهم المبادىء التى قام عليها الاسماعيلية مذهبهم ، ايمانهم بأن للعقيدة ظاهرا وباطنا ، مما جعل الناس يطلقون عليهم اسـم الباطنية . وقد اشتدت دعـوة الباطنية فى فارس والشام بوجه خاص ، وبرز من دعاتهم الحسن بن الصباح الذى شيد القلاع المنيعة فى فارس — وأهمها قلعة الموت — ومنها أخذ الباطنية يواصلون دعوتهم وينفذون مؤامراتهم فى العالم الاسـلامى فى الشرق الأدنى . وعندما امتد نشاط الباطنية الى بلاد الشام أضافوا عاملا جديدا من عوامل التفكك فى تلك البلاد على عصر الحروب الصليبية . ذلك أن الباطنية لم يحجموا فى سبيل مقاومة المذهب السنى عن قتل بعض زعماء حركة الجهاد الاسلامية ضد الصليبيين ،

فقتلوا جناح الدولة أمير حمص سنة ١١٠٣ وخلف بن ملاعب صاحب فامية بعد ذلك بثلاث سنوات ، ومودود أتابك الموصل سنة ١١١٣ .. بل حاولوا قتل صلاح الدين الأيوبى نفسه وأصابوه لولا أن أراد الله له النجاة . وزاد من بأس طائفة الباطنية فى بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية كثرة ما امتلكوه من حصون ، أشهرها مصياف والعليقة والقدموس والخوابى والكهف والرصافة والمنيقة وغيرها . ويبدو أن عداء الباطنية الشديد لأهل السنة جعلهم يتقربون الى الصليبيين بالشام ضد الأيوبيين ثم المماليك ، وفى الوقت نفسه رأى الصليبيون فى الباطنية قوة طيبة يمكن محالفتها والاعتماد عليها فى الحد من بطش سلاطين الأيوبيين ثم المماليك من بعدهم . لذلك دأبت القوى الصليبية ببلاد الشام على ارسال الهدايا الى الباطنية اتقاء لشرهم من ناحية وطمعا فى تأييدهم من ناحية أخرى .

وكان من المستحيل أن يرضى بيبرس عن وضع الاسماعيلية الباطنية فى بلاد الشام ، لأن المماليك كانوا سنيين فاعتبروا الاسماعيلية زنادقة ، فضلا عن العلاقات الطيبة التى ربطت الاسماعيلية بالصليبيين . لذلك بدأ بيبرس بفرض ضرائب باهظة على الهدايا التى اعتاد الصليبيون أن يبعثوا بها الى شيخ الباطنية ، وذلك « افسادا لنواميس الاسماعيلية وتعجيزا لمن اكتفى شرهم بالهدية »[١] . ثم ان الظاهر بيبرس لاحظ ان طائفة الاسماعيلية

---

(١) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٢٩ .

عندما أخذ نفوذها يضعف فى بلاد الشام ، لجأت الى دفع الأموال للصليبيين — وبخاصة الاسبتارية فى حصن الأكراد — ولذلك انتهز السلطان فرصة الصلح الذى عقده مع الاسبتارية سنة ١٢٦٧ واشترط عليهم الامتناع عن أخذ الجزية التى كان يدفعها لهم الاسماعيلية الباطنية . ويروى المقريزى أن رسل الاسماعيلية وفدوا على السلطان الظاهر سنة ١٢٦٧ م (٦٦٥ هـ) ومعهم جملة من الذهب وقالوا : « هذا المال الذى كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت المسلمين ، لينفق فى المجاهدين » [١] .

على أنه يبدو أن الاسماعيلية ببلاد الشام لم يلبثوا أن ضاقوا بالجزية التى كانوا يدفعونها للسلطان الظاهر بيبرس ، بدليل أن نجم الدين حسون بن الشعرانى مقدم الاسماعيلية ببلاد الشام أرسل مبعوثا الى السلطان سنة ١٢٦٩ يطلب منه انقاص المال الذى كان يحمله الاسماعيلية الى بيت المال . وفى ذلك الوقت كانت العلاقة سيئة بين السلطان وأحد زعماء الاسماعيلية — وهو صارم الدين مبارك بن الرضى صاحب العليقة — فتوسط الوسطاء بين السلطان وصارم الدين حتى رضى عنه ، وعندئذ قلد بيبرس زعامة الاسماعيلية لصارم الدين وعزل نجم الدين الشعرانى . وكان أن توجه صارم الدين الى مصياف — المركز الرئيسى للدعوة الاسماعيلية ببلاد الشام — حيث أخذ يباشر مهام منصبه . ويدلنا هذا الحدث فى حد ذاته على مدى ما صار للسلطان بيبرس من

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٥٧ .

هيمنة على الاسماعيلية ببلاد الشام جعلته يتدخل فى عزل شيخهم واحلال شيخ آخر بدله . بل ان بيبرس اشترط على الاسماعيلية أن تكون مصياف وبلادها للسلطان ، وأرسل صحبة صارم الدين نائبا عن السلطان بمصياف . ولم يكن عسيرا على بيبرس بعد ذلك أن يستولى على حصون الاسماعيلية ببلاد الشام حصنا بعد آخر (١٢٧٠ — ١٢٧٣) حتى استولى عليها جميعا ، وعندئذ انتهى أمرهم ببلاد الشام وأقطعهم السلطان بدل قلاعهم الشامية بعض الجهات فى مصر ليعيشوا فيها . ويروى المقريزى أنه بعد أن طرد الاسماعيلية من بلاد الشام « أقيمت هناك الجمعة وترضى عن الصحابة بها ، وعفيت المنكرات منها ، وأظهرت شرائع الاسلام وشعائره »[١] ولعل فى هذه العبارة ما يكفى للدلالة على أن المعاصرين كانوا ينظرون الى تعاليم الاسماعيلية على أنها بدعة فى الدين مما يفسر حروب بيبرس ضدهم .

* * *

بيبرس وغزو قبرس

وفى الوقت الذى تزعم السلطان الظاهر بيبرس حركة الجهاد ضد الصليبيين ، تزعمت جزيرة قبرس القوى الصليبية فى الشرق الأدنى فى عدوانهم على المسلمين . وكانت هذه الجزيرة قد شهدت فى أواخر القرن الثانى عشر قيام أسرة جديدة فى حكمها — هى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٠٨ .

أسرة آل لوزجنان الصليبية — التى استغل ملوكها موقع جزيرتهم قرب بلاد الشام من ناحية وفى مواجهة مصر من ناحية أخرى فى القيام بدور حماة المصالح الصليبية فى الشرق ضد المسلمين . من ذلك أنه حدث عندما قام السلطان بيبرس بهجومه الواسع على القوى الصليبية بالشام سنة ١٢٦٣ ، أن أسرع الوصى على عرش قبرس — وهو الأمير هيو الأنطاكى — الى نجدة الصليبيين سنة ١٢٦٥ بقوة كبيرة من قبرس ، قدرها المقريزى بنحو ألف وخمسمائة فارس . ولكن يبدو أن الوصى وصل الى الشام متأخرا فلم يستطع القيام بشيء ضد استيلاء بيبرس على قيسارية وحيفا وأرسوف .

ثم حدث فى سنة ١٢٦٩ أن جمع هيو الثالث لوزجنان بين تاجى قبرس ومملكة بيت المقدس الصليبية فى عكا ، مما مكن ذلك الملك من القيام بدور نشيط فى محاربة المسلمين بوصفه حاكما على أكبر دولتين للصليبيين فى الشرق . وقد بدأ الملك هيو الثالث سياسته العدوانية ضد بيبرس بأن قبض على رسل السلطان وهم فى طريقهم الى سلاجقة الروم ، وذلك على الرغم من الأمان المعطى لهم . على أنه يبدو أن بيبرس لم يكن مستعدا فى ذلك الوقت للقيام بعمل حربى كبير ضد جزيرة قبرس وملكها ، فاكتفى بدعوة بعض زعماء الصليبيين بالشام وعاتبهم عتابا شديدا « لغدر صاحب قبرس » . ويتضح من الخطاب الطويل الذى ألقاه بيبرس على ممثلى الهيئات الصليبية بالشام فى تلك المناسبة ، مدى حنقه على هيو الثالث صاحب قبرس لاعتداء رعيته على المسلمين من ناحية ولمساعدتهم

للصليبيين من ناحية أخرى ؛ فتعرض بيبرس لملك قبرص بالنقد القوى والتحقير الشديد والتهديد والوعيد .

ولم يكن الظاهر بيبرس بالرجل الذى يقول ولا يعمل ، بل انه سرعان ما ألحق تهديده بالتفكير فى غزو قبرس ، وأخذ فعلا يعد العدة لذلك . وسرعان ما سنحت الفرصة للسلطان سنة ١٢٧٠ عندما علم أن هيو الثالث ملك قبرس حضر الى عكا يتفقد شئون مملكة بيت المقدس الصليبية ، فرأى بيبرس أن يدهم جزيرة فى غيبته . وكان أن أسرعت المراكب المصرية وعددها سبع عشرة — الى جزيرة قبرس تحت قيادة المقدم ابن حسون . وقد أعد ابن حسون خدعة حربية كان المظنون أنها من اختراع العقل الحديث ، اذ طلى ظاهر السفن بالقار مثلما كان يفعل الصليبيون فى سفنهم ، ورسم عليها الصلبان من الخارج حتى تنسبك الحيلة على القبارسة . غير أن ريحا عاصفة هبت على السفن الاسلامية على مقربة من ليماسول ، فانكسر منها احدى عشرة مركبا ، وعرف القبارسة من صياح بحارتها أنها سفن اسلامية فأسروا جميع من فيها من الرجال وعدتهم ألف وثمانمائة . أما المراكب الست الباقية فقد نجت وعادت سالمة وعليها الرئيس ابن حسون [1] .

ولم يستطع هيو الثالث أن يخفى شماتته ، فأرسل الى السلطان بيبرس يخبره بانكسار سفنه وأسر رجالها وذلك قبل وصول ابن حسون . ولما تحقق بيبرس الخبر اختار أن يجعل من الهزيمة

---

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٧ ــ ٤٨ .

نصرا ومن الانكسار ظفرا فقال « الحمد لله ! منذ ملكني الله تعالى ما خذلت لى راية ، وكنت أخاف اصابة عين ، فبهـذا ولا بغيره !! » . ثم بادر بيبرس بكتابة رسالة الى هيو الثالث ، بذلك الأسـلوب التهكمى اللاذع الذى اشتهرت به رسـائله . وصادف عندئذ أن كان بيبرس قد استولى على حصن القرين — وهو من حصون الصليبيين المنيعة بالشام — فوازن السلطان فى رسالته بين فتح القرين وبين ما يدعيه هيو الثالث من نصر زائف مرجعه الريح والعواصف لا شجاعة الرجال وبلاء الفرسان ؛ قال « وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب ، الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب .. وما النصر بالهواء مليح ، وانما النصر بالسيف هو المليح .. ونحن ننشىء فى يوم واحد عدة قطايع (سفن) ولا ينشأ لكم من حصن قطعة ، ونجهز مائة قلع ولا تجهز لكم فى مائة سنة قلعة . وكل من أعطى مقدافا قدف وما كل من أعطى سيفا أحسن الضرب به أو عرف .. وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول..» . ثم بعث بيبرس الأمير فخر الدين الحاجب الى صور لابتياع الأسرى ، ولكن الصليبيين تغالوا فى ثمن الرؤساء مغالاة أعجزت المماليك عن شرائهم ؛ فظل هؤلاء الرؤساء — وعددهم ستة — عند الصليبيين محبوسين فى قلعة عكا ، حتى تمكن المسلمون من رشـوة الحراس المكلفين بهم وتهريبهم الى القاهرة[1] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦١٥ .

والواقع ان همة بيبرس لم تتقاعس عن انشاء أسطول جديد ومحاولة غزو قبرس مرة ثانية . ولكن يبدو أن مشاغل بيبرس — وبخاصة من ناحية مغول فارس — حالت دون تمكينه من تنفيذ ذلك المشروع . ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة على حروب بيبرس ضد المغول من ناحية وفى آسيا الصغرى من ناحية أخرى ، لندرك مدى مشاغله واتساع نطاق نشاطه .

الفصل الخامس

حروب بيبرس ضد المغول في آسيا الصغرى

بيبرس والمغــول :

لا يكاد الباحث فى تاريخ السلطان الظاهر بيبرس يتتبع حروبه حتى تواجهه حقيقة كبرى ، هى أنه لا يمكن وضع خط فاصل بين حروبه ضد الصليبيين وحروبه ضد المغول ؛ فالواقع أن الظاهر بيبرس كثيرا ما كان يحارب الطرفين فى وقت واحد ، أو يخرج لحرب أحدهما فيخوض غمار الحرب ضد الآخر .

والواقع ان الصراع بين المماليك والمغول كان أمرا طبيعيا بين جارين آمن كل منهما بفكرة الحرب ومبدأ الغزو ، واتخذ هذه الفكرة وذلك المبدأ محورا لنشاطه ومجالا لحياته [1] .. واذا كان هناك عامل دينى واضح جعل المسلمين يكرهون المغول بوصفهم مسئولين عن اسقاط الخلافة العباسية وتخريب حاضرتها بغداد ، فاننا يجب أن نذكر بالاضافة الى هذا العامل الأثر القوى الذى تركه صغار أمراء المسلمين الذين استولى المغــول على مدنهم وبلادهم فى العراق والشام ، والذين احتموا بسلاطين مصر وأخذوا

(١) Wiet ; L' Egypte Arabe, p.431.

يحرضونهم ضد المغول ، عسى أن يكون فى ذلك تنفيسا عما تكنه صدورهم من حقد على المغول ، وسلوى لما لحقهم من أضرار وبلاء على أيديهم . هذا كله بالاضافة الى أن فكرة الوحـدة الاسلامية التى ظلت قائمة منذ أيام الأيوبيين ، أملت على سلاطين المماليك مد يد المساعدة الى أمراء المسلمين الذين تعرضـوا لعسف المغول فى الشرق الأدنى . واذا كان الأيوبيون ثم المماليك من بعدهم قد اتخذوا لأنفسهم لقب سلاطين الاسـلام ، وبذلك اكتسبوا صفة حماة العالم الاسلامى المدافعين عنه وعن أهله ، فلا أقل من أن يسهروا على دفع الأخطار التى هددت العـالم الاسلامى من جانب الصليبيين والمغول جميعا . ولا يخفى علينا أن الظاهر بيبرس بالذات قام وهو أمير — قبل أن يلى السلطنة — بدور بارز فى مدافعة المغول ، وأبلى بلاء حسنا فى محاربتهم عند غزه ثم عند عين جالوت ، وبذلك اكتسب خبرة طيبة بأساليبهم وطرقهم . ولابد أن يكون الظاهر بيبرس قد أحاط علما بمـا تم من اتصالات بين مغول فارس من ناحية والبابوية ولويس التاسع وملوك أرمينيا الصغرى من ناحية أخرى ، وهى الاتصالات التى استهدفت الاجهاز على البلدان العربية فى الشرق الأدنى .

واذا كان مغول فارس بزعامة هولاكو وخلفائه هم الذين أنزلوا الضرر ببلاد المسلمين فى الشرق الأدنى ، فاجتاحوا العراق ودمروا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم ، وأوغلوا فى الشام حتى غزة وعين جالوت فى فلسطين ؛ فان هناك فرعا آخر من المغول — هم مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية الذين كان مركزهم بين

بحر قزوين ونهر الفولجا — اتخذوا سياسة مغايرة تماما . ذلك أن بركة — خان مغول القفجاق (١٢٥٦ — ١٢٦٧) — أعتنق الاسلام ، وغضب لما فعله هولاكو وقومه ببلاد المسلمين وبخاصة قتلهم الخليفة العباسى . ولم يلبث أن انتشر الاسلام بين نسبة كبيرة من مغول القفجاق ، مما جعل النفور يشتد بينهم وبين مغول فارس ؛ وفى الوقت نفسه صار مغول القفجاق قوة كبرى تفرح لما يصيبه المسلمون جميعا من خير وتألم لما ينزل بهم من شر .

أما بالنسبة للسلطان بيبرس ، فقد رأى فى اسلام بركة خان وقومه فرصة طيبة لاكتساب هذه القوة الاسلامية الجديدة الى جانبه للوقوف فى وجه مطامع مغول فارس . ويشهد على ذلك ما ذكره المقريزى من أن السلطان بيبرس « كتب الى الملك بركة خان يغريه بقتال هولاكو ويرغبه فى ذلك وسببه تواتر الأخبار باسلام بركة » [١] . ويبدو أن بركة خان لم يكن فى حاجة الى اغراء وتحريض على قتال هولاكو ، لأن العلاقة بين الطرفين كانت سيئة فعلا قبل أن يشهر بركة اسلامه ، وذلك بسبب بعض مشكلات الحدود بين مغول فارس ومغول القفجاق من ناحية ، وبسبب تعارض موقف الطرفين من قوبيلاى خاقان المغول الأعظم فى قراقورم من ناحية أخرى . وهكذا تطلبت ظروف كل من بيبرس وبركة خان نشأة تحالف قوى بين الطرفين ضد العدو المشترك وهو مغول فارس . وقد شجعت هذه العلاقة الطيبة بعض رجال

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٦٥ .

القبيلة الذهبية على الهجرة الى مصر حيث استقبلهم بيبرس بكل مظاهر الحفاوة والتكريم وأقنعهم باعتناق الدين الاسـلامى ، وأنزلهم فى دور بنيت لهم فى جهة اللوق ، ورفع بعض كبرائهم الى درجة الامارة ومنحهم الاقطاعات [1] .

ولم تلبث أن وفدت رسل بركة خان سنة ١٢٦٣ الى السلطان الظاهر بيبرس ، ومعهم خطاب من بركة يقولون فيه « فليعلم السلطان (الظاهر) أننى حاربت هولاكو الذى هو من لحمى ودمى لاعلاء كلمة الله العليا تعصبا لدين الاسلام ، لأنه باغ والباغى كافر بالله ورسوله .. » . على أن الأمر الذى يسترعى الانتباه فى هذه الرسالة هو أن بركة خان حرص على أن يشكر بيبرس لاحيائه الخلافة العباسية فى القاهرة وعلى محاولته لاستخلاص بغداد من أيدى مغول فارس [2] . وقد بادر السلطان بيبرس بارسال الرد الى بركة خان مصحوبا بالهدايا الثمينة [3] ؛ وحرص بيبرس فى رسالته على أن يضمنها كثيرا « من الترغيب والاستمالة والاغراء على هولاكو » [4] . ويذكر المقريزى أن رسل بيبرس حكوا عند عودتهم الى مصر أن لكل أمير وأميرة فى بلاط بركة خـان اماما ومؤذنا خاصا وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن فى المدارس [5] .

---

(١) محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس ص ١١١ .
(٢) الغينى : عقد الجمان ج ٢٠ مجلد ٣ ورقة ٤٩٤ .
(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٧٣ ، مفضل بن أبى الفضائل : النهج ص ١١٢ .
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٢٢ ب .
(٥) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٥ .

وكان أن توج السلطان بيبرس علاقته مع مغول القفجاق بزواجه من ابنة بركة خان مما يشير الى قوة الرابطة بين الطرفين .

ولا شك فى أن حرص بيبرس على تقوية الرابطة بينه وبين مغول القفجاق يعتبر شاهدا على براعة ذلك السلطان السياسية ومهارته الدبلوماسية .فبفضل هذه السياسة الحكيمة تجنب بيبرس قيام تحالف بين القوى المغولية الكبرى فى الشرق الأوسط ضد دولة المماليك الناشئة فى مصر والشام ، كما ضمن بيبرس وجود شاغل قوى لمغول فارس يمنعهم من توجيه كل قواهم وجهودهم ضد المسلمين ، وبخاصة فى بلاد الشام . وهكذا نلمس فى غزوات مغول فارس لبلاد الشام على عهد بيبرس ، أنها جاءت غزوات سريعة مبتورة تنقصها قوة الاندفاع الكبرى التى ميزت غزوات المغول السابقة ، وذلك بسبب التطورات الداخلية فى دولة المغول نفسها فضلا عن انشغال مغول فارس بأمر مغول القفجاق حلفاء بيبرس .

وقد ظل مغول فارس منذ موقعة عين جالوت لا يكفون عن التطلع الى بلاد الشام والطمع فى العودة اليها وامتلاكها ، الأمر الذى ترتب عليه قيامهم بعدة اغارات على تلك البلاد فى عهد بيبرس وخلفائه من سلاطين المماليك . ولم يكن السلطان الظاهر بيبرس بالرجل الذى يرتضي ذلك الوضع ، أو يقبل مسالمة مغول فارس بعد أن طعنوا العالم الاسلامى طعنة دامية فى قلبه . ولذلك حرص على الوقوف لهم بالمرصاد ، وصد غاراتهم عن بلاد الشام ، وتتبع محاولتهم للتحالف مع القوى الأخرى فى الشرق الأدنى

— صليبية كانت أو غير صليبية — ضد سلطنة المماليك فى مصر . وهذا هو السر فى أن حروب السلطان بيبرس لم تقتصر فى ذلك الدور على الصليبيين فى الشام ومغول فارس فى العراق ، وانما امتدت الى أرمينيا الصغرى فضلا عن سلاجقة الروم بآسيا الصغرى .

وتروى المراجع أن بيبرس لم يكد يفرغ من مشكلاته الداخلية حتى بلغه أن المغول أغاروا سنة ١٢٦٥ على البيرة — وهى قلعة هامة على نهر الفرات — وحاصروها بغية الاستيلاء عليها . وكان أن أظهر بيبرس همة كبيرة فأرسل الجيوش الى الشام على دفعات ، ثم سافر بنفسه على رأس الفوج الأخير فى نهاية يناير سنة ١٢٦٥ فوصل غزة فى ٩ فبراير . وقد أدى الاسراع فى السير الى أجهاد الدواب فهلك منها عدد كثير ونشأت صعوبة فى حمل العتاد . ولما شكا بعضهم الى السلطان قلة الدواب قال « ما أنا فى قيد الجمال ، أنا فى قيد نصر الاسلام ! » [١] وفى تلك الأثناء جاءت الأخبار بأن التتار نصبوا على البيرة عددا كبيرا من المجانيق وأن القلعة أوشكت أن تقع فى أيديهم ؛ فتكتم بيبرس تلك الأنباء حتى لا تؤثر فى روح الجند المعنوية ، وجد فى السير شمالا ، وفى الوقت نفسه أرسل الى القوات التى سبقته يستحثها على الاسراع لانقاذ البيرة . وعندما وصل بيبرس الى صيدا ركب للصيد ، فوقع عن فرسه وأصيب اصابات بالغة فى وجهه ، ولكنه تجلد وواصل

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٢٤ .

السير حتى وصل الى يبنى . وجدير بالذكر أن حكام المـدن الصليبية التى مر بها بيبرس لم يعرفوا مقصد السلطان من تلك الغزوة وخشوا أن يتعرضوا لهجومه ، فبادر بعضهم عندئذ — مثل حنا الثانى دى ابلين صاحب يافا — بتقديم الهدايا للسلطان بيبرس واسترضائه .

ومهما يكن من الأمر ، فان بيبرس لم يكد يصل الى يبنى حتى ورد عليه البريد من دمشق . ويقال ان بيبرس كان بالحمام وقت وصول البريد ، ومع ذلك فقد أصر على أن يقرأ عليه حتى يطمئن على الموقف بالنسبة للبيرة . وكان أن قرأ عليه الكتاب وهو عريان فى الحمام ، فاذا به يتضمن أن الملك المنصور صاحب حماة أسرع الى البيرة صحبة القوات التى أرسلها بيبرس ، وأن المغول عندما شاهدوا تلك الجموع الكبيرة لم يمكنهم مواصلة الهجوم ففروا بعد أن رموا مجانيقهم وغرقوا سفنهم فى الفرات .

على أن بيبرس لم يقنع بتلك الأخبار ، لأنه أدرك أهميـة البيرة وما يمكن أن تتعرض له على أيدى التتار فى المستقبل ، بوصفها محطة للعبور من شمال العراق الى شمال الشام . لذلك أمر بيبرس بحمل آلات الحصار والأسلحة اليها من الشام ، وأن يخزن فيها كل ما يحتاج اليه أهلها فى الحصار لمدة عشر سنين . كذلك كتب السلطان لصاحب حمـاة والأمراء بالاقامة على البيرة حتى يتم تنظيف الخندق من الحجارة التى ردمها العدو فيه ، فكانت الأمراء تنقل الحجارة على أكتافها فى حماسة بالغة . وكان بيبرس يعمل بنفسه فى هدم سوق قيسارية وقد تجرحت يده عندما

أرسل له الأمراء من البيرة يصفون ما يتحملونه من مشقة فى نقل الأحجار من الخندق ، فرد عليهم السلطان قائلا : « انا بحمد الله ما تخصصنا عنكم براحة ولا دعة ، ولا أنتم فى ضيق ونحن فى سعة. ما هنا الا من هو مباشر الحروب الليل والنهار ، وناقل الأحجار ومرابط الكفار . وقد تساوينا فى هذه الأمور ، وما ثم ما تضيق به الصدور » [1] . ثم ان بيبرس أمر باحضار ثلثمائة ألف درهم وثلثمائة تشريف (خلعة) لتوزيعها على أهل البيرة جميعا من الأمراء والجند والعامة ، وذلك تقديرا لشجاعتهم وصمودهم فى وجه المغول . وفى الوقت نفسه حرص بيبرس على أن يستخدم شيوخ العرب فى العراق ليكونوا عينا له على المغول ويذكر المقريزى أن بعض هؤلاء الشيوخ من هيت والأنبار والحلة والكوفة وفدوا على بيبرس ، فأنعم عليهم وأجزل لهم ليحيطوه علما بتحركات التتار [2] .

ولم تؤد وفاة هولاكو خان مغول فارس سنة ١٢٦٥ الى تهدئة الموقف بين المغول وسلطنة المماليك ، لأن أبغا بن هولاكو كان مسيحيا نسطوريا ، فتزوج من ابنة الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس ، وحرص على أن يدعم صلاته بالقوى المسيحية فى الشرق والغرب جميعا للانتقام من المسلمين فى بلاد الشام ومصر . وهذا هو السر فى كثرة السفارات المتبادلة بين المغول والبابوية فى تلك الفترة . وهنا يلاحظ أن البابوية وبعض القوى الصليبية

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٢٥ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٧٦ .

فى الشرق — مثل أرمينيا الصغرى — رأوا فى المغول أداة طيبة يمكن استغلالها فى القضاء على الاسلام والمسلمين فى الشرق الأدنى ، وفى تمكين الصليبيين من استرداد المعاقل والأراضى التى فقدوها فى بلاد الشام وعلى رأسها بيت المقدس . وكانت أخبار تلك الاتصالات الواسعة بين الغرب الأوربى من جهة والمغول من جهة ثانية ومملكة أرمينيا الصغرى الصليبية من جهة ثالثة لا تفتأ أن تصل الى بيبرس بين حين وآخر . ومن ذلك ما يذكره المقريزى فى حوادث سنة ٦٦٨ هـ من أنه « ورد الخبر بأن جماعة من الفرنج خرجوا من الغرب وبعثوا الى أبغا بن هولاكو بأنهم واصلون لمواعدته من جهة سيس (فى أرمينيا الصغرى) فى سفن كثيرة » [١] .

على أنه يبدو أن أحوال دولة مغول فارس الداخلية والخارجية عند قيام أبغا فى الحكم كانت لا تشجعه على الاستمرار فى معاداة المسلمين فى مصر والشام ، بدليل أنه بدأ بأن أرسل الرسل سنة ١٢٦٥ الى السلطان بيبرس تحمل الهدايا وتطلب الصلح . ولكن بيبرس — شأنه شأن أى حاكم مسلم معاصر — كان لا يرتضى لنفسه أن يضع يده فى يد المغول ، وهم الذين مزقوا العالم الاسلامى وقتلوا خليفة المسلمين وحالفوا أعداء الاسلام . ولما أهمل بيبرس تلك الدعوة الى الصلح ، عاد أبغا بعد عدة سنوات وأرسل سنة ١٢٦٨ رسولا الى بيبرس يكرر الطلب الى

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٨٤ — ٥٨٥ .

الصلح . وفى هذه المرة وسّط أبغا ملك أرمينيا الصغرى فى طلب الصلح ، كما لجأ الى مزيد من التهديد والترغيب فجاء فى كتابه الى بيبرس « ان الملك أبغا لما خرج الى الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد ، ومن خالفه هلك وقتل . فأنت لو صعدت الى السماء أو هبطت الى الأرض ما خلصت منا ، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا » . ثم ان أبغا لم يكتف بذلك التهديد الصريح ، بل عمد — على لسان رسوله — الى تجريح بيبرس بأصله غير الحر ، والحط من قدره وقيمته بين الملوك ، فقال الرسول للسلطان أثناء الحديث « أنت مملوك وأبعت فى سيواس ، فكيف تشاقق الملوك ، ملوك الأرض ؟ » ولكن بيبرس لم يضعف أمام حرب الأعصاب التى حاول أبغا أن يشنها عليه ، فرفض مبدأ الصلح ، ورد على رسول المغول قائلا : « اعلم أنى وراءه بالمطالبة ، ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التى استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض ! » [1] . ولعل فى هذه العبارة ما يكفى لتصوير شعور بيبرس — وكافة المسلمين المعاصرين — نحو ما فعله المغول ببغداد والخلافة .

وهكذا يئس أبغا من مصالحة بيبرس ، فلم يبق الا مواصلة العدوان على بلاد الشام بمحالفة الصليبيين . وكان بيبرس بالاسكندرية سنة ١٢٦٩ عندما بلغه أن المغول أغاروا على الساجور — قرب حلب — « وأنهم واعدوا فرنج الساحل » أى

(١) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩ (مخطوط) .

اتفقوا مع الصليبيين على القيام بهجوم مشترك على بلاد الشام . وفى الحال أرسل السلطان بيبرس الأمير علاء الدين البندقدار على رأس قوة من الجند ، وأمره أن يقيم فى أطراف بلاد الشام على أهبة لصد المغول . ولم يكتف بيبرس بذلك وانما خرج بنفسه الى الشام ، ولكنه لم يكد يصل الى دمشق حتى سمع بانهزام المغول وارتدادهم عن بلاد الشام . وفى تلك المرحلة جاءت الأخبار بأن جموعا من الصليبيين خرجوا من أرغونة قاصدين حرب المسلمين بالشام بناء على اتفاق سابق مع المغول ؛ ولكن سفنهم تعرضت لريح عاتية فرقتها وأغرقت معظم من فيها . وهكذا يعجب المقريزى من الظروف التى جعلت أعداء الظاهر بيبرس يصابون بتلك الهزائم بمجرد وصول السلطان الى الشام « وكأن قد ألقى الله فى أنفس الناس أن السلطان وحده يقوم مقام العساكر الكثيرة فى هزيمة الأعداء ، وأن اسمه يرد الأعداء من كل جانب » (١) .

ولم يقنع أبغا بذلك الفشل الذى منى به فى هجماته على بلاد الشام ، فعاود الهجوم سنة ١٢٧١ على عين تاب وعمق الحارم . وكان بيبرس عندئذ بدمشق فكتب الى القاهرة باستدعاء الأمير بيسرى ومعه ثلاثة آلاف فارس لطرد المغول ؛ وعندئذ خرج السلطان على رأس جيشه الى حلب وأرسل فرقا من جنده تحت قيادة بعض الأمراء الى أطراف الشام والعراق مثل مرعش وحران والرها . ولم تلبث أن حلت الهزيمة بالمغول عند حران ، وعندئذ

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٨٤ .

تدخل الصليبيون للتخفيف عن حلفائهم المغول ، فأغاروا على قاقون ولكن المسلمين هزموهم وردوهم ، وفى الوقت نفسه عاقب بيبرس الصليبيين فأغار على عكا .

* * *

وعندما أحس الصليبيون فى عكا ضعف مركزهم أمام بيبرس ، أرسلوا اليه فى طلب الصلح ، فتم عقد الهدنة لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشر ساعات . ويبدو أن الصلح بين بيبرس والصليبيين حرم أبغا والمغول من حلفاء مخلصين ، الأمر الذى جعل أبغا ييأس من مواصلة الحرب ويفكر هو الآخر فى طلب الصلح . وكان أن أرسل أبغا بعض الرسل الى السلطان بيبرس بغية جس النبض فى موضوع الصلح فأكرم السلطان وفادتهم ، وأرسل بدوره اثنين من كبار أمرائه الى أبغا ومعهما الهدايا والخلع .

ويبدو أن أبغا أراد أن يقوم ببعض مظاهرات عسكرية على حدود الشام ليستعجل بيبرس فى الصلح ؛ فتحرك المغول على حدود الشام سنة ١٢٧٢ وفى الوقت نفسه أرسل أبغا رسله الى الشام لطلب الصلح . وفى تلك المرة أهمل رسل المغول « ولم يحتفل بهم » ؛ وقد طلبوا أن يذهب الأمير سنقر الأشقر الى الشام لطلب الصلح ، ثم عادوا ونقضوا كلامهم فقالوا بل « يمشى السلطان أو من يكون بعده فى المنزلة الى أبغا لأجل الصلح » . وعندئذ رد عليهم بيبرس قائلا : « بل أبغا اذا قصد الصلح يمشى هو فيه أو أحد من اخوته » . ثم ان بيبرس اختار عندئذ أن

يستعرض قوته أمام رسل المغول فأمر جنوده «فلبسوا عدد الحرب ولعبوا فى الميدان خارج دمشق والرسل تشاهد ذلك » .

ولم يكد رسل المغول ينصرفون من عند السلطان الظاهر ، حتى جاءت الأخبار باغارة جيوش أبغا على البيرة وأنهم نصبوا المجانيق لمهاجمتها واتخذوا كافة الاحتياطات لمنع المسلمين من الوصول اليها عبر الفرات . وكان أن أسرع السلطان بيبرس الى تعبئة جنوده وأسرع لانقاذ البيرة ومعه بضع سفن حملت على ظهور الجمال للاستعانة بها على عبور الفرات . وقد أظهر فرسان المسلمين بزعامة بيبرس شجاعة نادرة ، فألقوا بأنفسهم فى ماء الفرات « وساقوا فيها عوما ، الفارس الى جانب الفارس وهم متماسكون بالأعنة ، ومجاديفهم رماحهم » . وكان أول من وصل الى البر الشرقى للفرات هو السلطان بيبرس نفسه ، فصلى ركعتين شكرا لله ثم قاد عساكره ضد المغول فأنزلوا بهم الهزيمة وقتلوا وأسروا كثيرين منهم .

* * *

بيبرس وسلاجقة الروم :

وعندما أدرك المغول أنهم فى حاجة الى حليف ضد بيبرس وأن الصليبيين ببلاد الشام صاروا على درجة من الضعف والتفكك لا تساعد على الاعتماد عليهم ، فكر أبغا فى استخدام سلاجقة الروم وزعيمهم معين الدين البرواناه فى مهاجمة المماليك . وكانت بلاد سلاجقة الروم مشمولة فى ذلك الوقت بالحماية المغولية ،

الأمر الذى جعل بيبرس يقوم بحملة كبرى على بلاد سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى سنة ١٢٧٧ حيث مزق الجيش المغولى شر ممزق عند أبلستين فى ١٨ أبريل ، دون أن يستطيع كيخسرو الثالث سلطان سلاجقة الروم الذى كان طفلا ، أو وزيره معين الدين البرواناه صد بيبرس وجنده [١] . وهكذا دخل بيبرس قيصرية بآسيا الصغرى حيث خطب له على منابرها « وجلس على تخت آل سلجوق » ، مما جعل معين الدين البرواناه يعلن خضوعه وولاءه للسلطان بيبرس . وعندما سمع أبغا بما فعله بيبرس فى الأناضول أسرع الى أبلستين سنة ١٢٧٧ حيث شاهد عسكره صرعى ولم يجد أحدا من عسكر الروم مقتولا ، فاستشاط غضبا وأمر بنهب بلاد الروم وقتل من صادفه من المسلمين ، كما قتل البرواناه نفسه [٢] . ويروى مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذانى أن أبغا لم يتمالك نفسه عندما شاهد جثث المغول الذين قتلهم بيبرس ، فبكى وحزن على رجاله حزنا عميقا [٣] .

على أن الملاحظ أن غزوة بيبرس للأناضول أدت الى تقوية الرابطة بين المغول والصليبيين ، اذ اعتبر أبغا الصليبيين حلفاء طبيعيين له ولدولته فى حين أنه قسا فى معاملة المسلمين حتى يقال انه قتل من فقهاء المسلمين وقضاتهم ورعاياهم ببلاد الروم ما يزيد

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٢٥٩ ومابعدها .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر حوادث سنة ٦٧٥ هـ .

(٣) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ـ المجلد الثانى من الجزء الثانى ص ٦٢ ـ ٦٣ .

على مائتى ألف نفس . وكان ليون الثالث ملك أرمينيا الصغرى أول من رغب من القوى الصليبية فى الشرق فى مد يده للمغول فتم عقد تحالف بينه وبين أبغا ، واتفق الزعيمان على القيام بحملة كبرى على الشام لاغتصابها من أصحابها وانتزاع بيت المقدس من أيديهم ؛ كما اتفقا على ارسال الرسل الى البابا وملوك الغرب الأوربى لطلب مساعدتهم عن طريق انفاذ حملة صليبية كبرى الى الشرق . والواقع ان هذا التحالف بين أبغا وليون الثالث يتطلب منا القاء نظرة سريعة على موقف أرمينيا الصغرى من المغول من ناحية وموقف الظاهر بيبرس من مملكة أرمينيا الصغرى من ناحية أخرى .

الظاهر بيبرس وأرمينيا الصغرى :

نشأت مملكة أرمينيا الصغرى الصليبية فى أواخر القرن الثانى عشر فى اقليم قيليقية ، أى فى الركن الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى . وقد استغل ملوك هذه المملكة موقع مملكتهم بين آسيا الصغرى من ناحية وشمال الشام من ناحية أخرى فى تقديم كثير من المساعدات للصليبيين فى الشام ؛ وفى مشاركة القوى الصليبية فى حربها ضد المسلمين . ولم يكد المغول يستقرون فى بلاد فارس حتى وجد فيهم ملوك أرمينيا الصغرى قوة كبرى يمكن استغلالها ضد المسلمين فى العراق والشام . وفعلا حرص هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى على اغراء هولاكو على فتح العراق وبغداد ؛ حتى اذا ما تم ذلك خرج هيثوم صحبة رجاله من الأرمن لمرافقة

المغول فى فتح الشام . ولم يقنع هيثوم بما كان من هزيمة المغول فى عين جالوت ، وانما لجأ الى مهاجمة عين تاب سنة ١٢٦٤ ، ولكن السلطان بيبرس وجه الى حلب جيشا من عسكر حماة وحمص ، وتمكن هذا الجيش من انزال الهزيمة بالأرمن . وعندما استنجد هيثوم بالتتار قدم له أبغا سبعمائة فارس كانوا ببلاد سلاجقة الروم ، فتمكن هيثوم بمساعدتهم من محاصرة حارم ، ولكن برد الشتاء اضطرهم الى التراجع .

وكان لابد لبيبرس من اتخاذ اجراء حاسم ضد أرمينيا الصغرى ، لا سيما بعد أن لجأ ملكها هيثوم الأول الى فرض الحصار الاقتصادى على مصر والشام ومنع تصدير الأخشاب والحديد اليهما من آسيا الصغرى . وكان أن استغل بيبرس فرصة انشغال أبغا خان مغول فارس بالحرب ضد مغول القفجاق ، وأرسل جيشا فى صيف سنة ١٢٦٦ تحت قيادة الأمير قلاون والملك المنصور صاحب حماة لمهاجمة أرمينيا الصغرى . وقد استطاعت جيوش بيبرس فى تلك الغزوة أن تنزل هزيمة كبرى بالأرمن وحلفائهم قرب دربساك فى أغسطس سنة ١٢٦٦ ، وقتل فى المعركة أحد أبناء الملك هيثوم وأسر الابن الثانى ، فى حين كان الملك هيثوم نفسه متغيبا فى تبريز يستجدى مساعدة المغول (١) . ولم يلبث الأمير قلاون أن أغار على المدن الأرمينية الكبرى فى أرمينيا وهى المصيصة وأذنه وطرسوس ، فضلا عن ميناء اياس . أما الملك

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٤٠ ، أبو الفدا : المختصر سنة ٦٦٤ هـ .

المنصور صاحب حماة فقد اتجه الى (سيس) عاصمة أرمينيا الصغرى واستولى عليها « فجعل عاليها سافلها » ، وأشعل فيها النار فأتت على المدينة وأحرقت كنيستها ومقابر ملوك أرمينيا السابقين . وبعد أن قضى فرسان بيبرس فى أرمينيا الصغرى عشرين يوما ، عادوا بعد ذلك الى الشام ومعهم أربعون ألف أسير ومن الغنائم ما لا يعد ولا يحصى « حتى بيع الرأس البقر بدرهمين ولم يوجد من يشتريه » على حد وصف المقريزى .

وأخيرا عاد الملك هيثوم الأول الى بلاده ومعه بعض المغول ، ولكنه وصل بعد أن دمرت جيوش بيبرس بلاده ، فحاول أن يسترد ابنه الأسير من بيبرس . ولم يستطع ذلك الا بعد أن تخلى للسلطان الظاهر عن عدة مراكز هامة مثل دربساك ومرزبان ورعبان وكانت كلها تتحكم فى طرق المواصلات بين أرمينيا الصغرى من ناحية وبلاد الشام والعراق من ناحية أخرى .

والواقع ان مملكة أرمينيا الصغرى لم تفق مطلقا من تلك الضربة التى أنزلها بها بيبرس ، حتى اضطر هيثوم الأول أن يتخلى عن العرش لابنه ليون الثالث سنة ١٢٦٩ . ويبدو أن ليون الثالث هذا حاول أن يثأر من مصر والشام ، فاستأنف سياسة أبيه الخاصة بمحالفة المغول ضد المسلمين . وقد اعتبر السلطان بيبرس تلك التصرفات من جانب ليون الثالث نقضا للعهد بين الطرفين ، لذلك لم يكد يفرغ من انزال الهزيمة بالمغول عند الفرات سنة ١٢٧٣ حتى أرسل جيشا بقيادة الأمير قلاون الألفى والأمير بيليك الخازندار الى أرمينيا الصغرى ، فهاجموا سيس والمصيصة وقتلوا

كثيرا من الأرمن ثم عادوا ومعهم كميات ضخمة من الغنائم .

وهكذا حتى كانت الكارثة التى أنزلها السلطان بيبرس بالمغول عند أبلستين سنة ١٢٧٧ — كما سبق أن ذكرنا — وعندئذ عاد ليون الثالث ملك أرمينيا ليربط نفسه بعجلة المغول ، واتفق مع أبغا على القيام بجهد مشترك ضد المسلمين فى الشام ولم يستطع أبغا أن ينتظر المعونة من غرب أوربا ؛ وانما طلب من حليفه ملك أرمينيا الصغرى أن يشرعا فى الانتقام فورا من بيبرس . على أن شدة حرارة الصيف لم تمكن الطرفين من الزحف على الشام ، فآثرا الانتظار حتى الخريف والشتاء ، ولم يلبث أن شغل كل من أبغا وليون الثالث بأحوال بلادهما الداخلية ، مما صرفهما عن تنفيذ مشروعهما ومهاجمة بلاد الشام فى تلك الحلقة الأخيرة من حكم بيبرس .

الفصل السادس

بيبرس والعالم الاسلامى

بلاد الشام فى عهد بيبرس :

أثبت عصر الحروب الصليبية أهمية الوحدة بين مصر والشام فى مواجهة الأخطار التى هددت الوطن العربى فى الشرق الأدنى . فمن الشـــام زحف الخطر الصليبى ليهـــدد بلاد العراق ومصر والحجاز ، والى الشام امتد الخطر المغولى فى طريقه الى مصر وما وراء مصر من البلدان العربية . وفى هذه الأزمات جميعها اتجه أهل الشام نحو اخوانهم عرب مصر ، فخرجت من مصر الجيوش التى طردت المغول والصليبيين جميعا من الشام ، وبذلك حفظت للوطن العربى فى الشرق الأدنى كيانه ومقوماته .

وكان من الطبيعى أن يحرص سلاطين مصر على اقرار سلطانهم ونفوذهم فى بلاد الشام ، لا سيما بعد أن بدأ العصر المماليكى فى مصر بمحاولات من أبناء البيت الأيوبى فى الشام للقضاء على دولة المماليك فى مهدها . وكانت أهم مظاهر اهتمام سلاطين المماليك ببلاد الشام تقسيمها الى نيابات ، أى أقسام ادارية كبرى يقوم فى حكم كل قسم منها أحد الأمراء نائبا عن سلطان المماليك فى القاهرة . وقد وجدت على عهد السلطان بيبرس أربع نيابات كبرى بالشام ،

هى نيابة دمشق ونيابة حلب ونيابة صفد ونيـابة الكرك [1] . وكانت كل نيابة من هذه النيابات الأربع مقسمة بدورها الى نيابات صغرى أو ولايات يحكمها حكام يتبعون النائب فى حاضرة النيابة .

* * *

بيبرس والحجاز :

وثمة بلد اسلامى آخر خضع لحكومة السلطان بيبرس هو الحجاز . والمعروف أن الدول الاسلامية المستقلة التى قامت فى مصر حرصت دائما على بسط نفوذها السياسى والدينى عـلى الحرمين فدُعى لحكام الدولة الطولونية والأخشيدية والفاطمية والأيوبية على منابر مكة والمدينة . وكان شرفا عظيما ودعامة كبرى لكل حاكم مسلم أن يظهر أمام المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فى صورة حامى الحرمين والمدافع عن الحجاز وأرضه الطيبة . ولم تفت هذه الحقيقة السلطان الظاهر بيبرس ، وهو الرجل البعيد النظر والذى حرص دائما على أن يبدو فى صورة البطل المدافع عن العالم الاسلامى . وأحرى بالسلطان بيبرس الذى قام باحيـاء الخلافة العباسية فى مصر ، وقام بحمايتها والذود عنها ، أن يقوم بحماية بيت الله الحرام فى مكة ومقام الرسول عليه الصلاة والسلام فى المدينة .

والواقع ان عناية بيبرس بالأماكن الدينية بدت منذ أوائل

---

(١) لم تنشأ نيابة طرابلس الا سنة ١٢٩٠ فى عهد السـلطان المنصور قلاون ، ونيابة حماة الا سنة ١٣٤١ بعد وفاة المؤيد على وهو آخر حكامها من بنى أيوب .

حكمه ، ومن ذلك ما يرويه المقريزى من أنه فى العام التالى لتوليه السلطنة « جهز الأموال والأصناف لعمارة الحرم النبوى بالمدينة » وأرسلها صحبة الأمير علم الدين اليغمورى ، كما أرسل الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس — وكانت قد وهت — وزاد من الأوقاف الموقوفة على مقام ابراهيم عليه السلام ببلدة الخليل [1] . ثم يعود المقريزى فيشير فى حوادث سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) الى أن العمل انتهى فى شهر رمضان فى صناعة كسوة قبر النبى عليه الصلاة والسلام ، فعهد السلطان بيبرس الى أحد رجاله ليسافر بها ومعه « الشمع والبخور والزيت والطيب » .

على أن علاقة السلطان بيبرس بالحجاز لم تقف عند حد ارسال الأموال والكساوى ، وانما امتدت الى بسط نفوذه السياسى على تلك البلاد . ومهما قيل فى تعدد الأسباب التى دفعت بيبرس الى احياء الخلافة العباسية فى مصر ، فان بعض المستشرقين يصرون على أن بيبرس انما قصد من احياء الخلافة العباسية أن يستغل هذه القوة الجديدة فى بسط سيادته على الحجاز كما كان الحال أيام الأيوبيين [2] .

وكان أن أتاحت الخلافات بين أشراف الحجاز فرصة طيبة للسلطان الظاهر بيبرس لتحقيق أغراضه . من ذلك أن الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شيحة قدم من المدينة المنورة سنة ١٢٦٦ ليشكو الى السلطان بيبرس من أن الشريف جماز أمير

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٥ .

(٢) Van Berchem ; Titres Calif iens p.p 286-292.

المدينة حرمه من المشاركة فى الامرة التى كانت مناصفة بين أبيه ووالد جماز . وهنا لبى بيبرس طلب الشريف بدر الدين ، فكتب لجماز أن يسلمه نصف الامرة وأعطى بدر الدين تقليدا بذلك ، وبنصف أوقاف المدينة النبوية التى بالشام ومصر « فامتثل جماز » .

وفى سنة ١٢٦٨ م (٦٦٧ هـ) وقع خلاف فى مكة بين الشريف نجم الدين أبى نمى وبين عمه وشريكه فى امارة مكة الشريف بهاء الدين ادريس . وقد انتهز بيبرس هذه الفرصة لتسوية النزاع بينهما وتأكيد سلطانه عليهما جميعا ، فرتب السلطان لهما عشرين ألف درهم كل سنة ، بشرط ألا يجمعوا من أحد فى مكة مكوسا وألا يمنع أحد من زيارة البيت وألا يتعرض لتاجر . وأهم من هذا وذاك فقد اشترط بيبرس على أميرى مكة أن يخطب باسمه فى الحرم والمشاعر ، وأن تضرب السكة (النقود) باسمه ، مما يعبر عن سيادته السياسية التامة على الحجاز . وبعد أن وافق أميرا مكة على كل ذلك كتب لهما تقليدا بالامارة وسلمت لنوابهما أوقاف الحرم التى بمصر والشام .

ولم يبق بعد ذلك أمام بيبرس سوى الذهاب بنفسه الى الحجاز لتأكيد سلطانه على تلك البلاد من ناحية ولتأدية فريضة الحج من ناحية أخرى . وكان أن اتجه بيبرس الى الكرك ومنه الى الحجاز ٦٦٧ هـ ومعه بعض القضاة وقليل من الأمراء ونحو ثلثمائة من المماليك . وبعد أن قام السلطان الظاهر بزيارة المدينة ، اتجه الى مكة ، حيث فرق الأموال والكساوى سرا ، وغسل البيت

بيديه ، وعلق كسوة البيت ، وأظهر من ألوان التواضع والخشوع ما أفاض المؤرخون فى وصفه [1] .

على أن الذى يسترعى الانتباه ، علاقة أشراف الحجاز بالسلطان بيبرس أثناء اقامته فى المدينة ومكة . فالمقريزى يروى أنه عند وصول السلطان بيبرس الى المدينة « لم يقابله جماز ولا مالك أميرا المدينة وفرا منه » . أما أميرا مكة — وهما الأمير نجم الدين أبو نمى والأمير ادريس بن قتادة — فقد أحسن اليهما السلطان كما أحسن الى غيرهما من أكابر الحجاز وبخاصة أمير ينبع وأمير خليص . على أنه من الصعب أن نحكم بصفاء نية أميرى مكة تجاه بيبرس ، اذ يبدو أن أشراف الحجاز أحسوا دائمابثقل وطأة حكم بيبرس عليهم . واذا كانت المراجع تشير الى أن أميرى مكة طلبا من السلطان الظاهر تعيين أحد أمرائه نائبا عنه فى الحجاز، فاننا نعتقد أن ثمة حلقة مفقودة فى ذلك الطلب ؛ فاما ان فكرة تعيين نائب عن السلطان فى الحجاز نبعت عن بيبرس نفسه وبايحاء منه ، واما أن أميرى مكة لم يتقدما بهذا الطلب الا تحت تأثير الخوف من السلطان والرغبة فى تملقه . ومهما يكن من الأمر ، فان بيبرس انتهز فرصة قيامه باداء فريضة الحج ليعين أحد أمرائه — وهو الأمير شمس الدين مروان — نائبا عنه فى مكة « ليكون الحل والعقد على يديه » [2] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٨١ .

(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ مجلد ٣ ورقة ٥٥١ (مخطوط) ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٥١ ـ ٥٢ (مخطوط) .

والواقع أنه اذا كانت هناك أدلة قوية فى المراجع المعاصرة على سوء العلاقات بين الظاهر بيبرس وأشراف الحجاز ، فان هذه الظاهرة لا يمكن تفسيرها الا فى ضوء العلاقات بين أشراف الحجاز وأمراء بنى حفص فى تونس من ناحية وسلطنة المماليك من ناحية أخرى .

* * *

بيبرس وبنو حفص :

لم تكن العلاقة طيبة بين السلطان الظاهر بيبرس فى مصر وبنى حفص فى تونس ،وذلك بسبب مشكلة الخلافة فى العالم الاسلامى. ذلك أن ضعف الخلافة العباسية فى بغداد فى أواخر أيامها قلل من هيبتها فى نظر كثير من أمراء البلدان الاسلامية بعد أن كانوا يحرصون على رضاء الخلافة ليكسبوا حكمهم صبغة شرعية . ومن هؤلاء الحكام ملوك بنى حفص فى تونس ، الذين بلغت بهم الجرأة حد اتخاذ لقب الخلافة ، فتسمى أبو عبد الله محمد الحفصى (١٢٤٩ — ١٢٧٦) بلقب « المنتصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد ابن الأمراء الراشدين » . ويبدو أن الذى دفع أبا عبد الله محمد الحفصى الى اتخاذ لقب الخلافة هو اعتقاد البربر أنه لاقيمة لسلطة زمنية لايسندها سند روحى .

ومهما يكن من الأمر ، فان المراجع تشير بوضوح الى أن الذى هيأ الفرصة للحفصيين لاتخاذ لقب الخلافة هو شريف مكة أبو نمى

---

(١) Berchem ; Titres calif iens. q. 293.

ابن الحسن بن على بن قتادة بن ادريس الحسنى . ذلك أن أبا نمى أرسل من الحجاز سفارة الى أبى عبد الله محمد الحفصى تحمل له البيعة بالخلافة والاعتراف بسيادته على الأماكن المقدسة فى الحجاز .ولما وصلت هذه السفارة الى تونس احتفل بها أبو عبد الله محمد احتفالا كبيرا ،وقرئت البيعة أمام الشهود ؛ ومن ذلك الوقت اتخذ أبو عبد الله لقب « المستنصر بالله أمير المؤمنين » بعد أن كان لا يحمل الا لقب أمير فقط . وقد اختلفت المراجع فى تحديد التاريخ الذى تمت فيه تلك الخطوة ، وان كان يبدو أنها تمت قبل سقوط بغداد فى أيدى المغول ، أى فيما بين سنتى ١٢٥٢ ، ١٢٥٤ ؛كما يبدو أن شريف مكة عاد بعد سقوط بغداد ١٢٥٨ فأكد مرة أخرى تبعيته للخلافة الحفصية .

ولا شك فى أن اعتراف أبى نمى شريف مكة بسيادة الحفصيين فى تونس كان من شأنه أن يفقد دولة المماليك فى مصر سيادتها على بلاد الحجاز ، وهو أمر ليست له سابقة منذ أيام الطولونيين . لذلك ظهر الرأى الذى نادى به بعض المستشرقين وهو أن بيبرس انما حرص على احياء الخلافة العباسية فى مصر ليمكن لنفسه فى الحجاز، على أساس أن الخلافة العباسية أثبت أساسا من الخلافة الحفصية الجديدة ،وبالتالى فانه من حق بيبرس بوصفه حامى الخلافة العباسية أن يقوم بحماية الحرمين .

والواقع انه من الصعب تعليل هذا المسلك العدائى من جانب

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢ ، القيروانى : المونس فى أخبار افريقية وتونس ص ١٢٨ .

أشراف الحجاز تجاه السلطان بيبرس منذ أوائل حكمه . وقد حاول ابن خلدون أن يعلل ذلك بأن شرفاء مكة انما اتجهوا الى بنى حفص عندما غاظهم بيبرس واشتد فى معاملتهم [1] . ولكن ابن خلدون لم يحاول أن يبين نوع الاساءة التى ارتكبها بيبرس ازاءهم ، كذلك لم يرد فى بقية المراجع ما يشير الى أن بيبرس أساء الى أشراف الحجاز ، وعلى الأخص فى ذلك الدور الأول من تاريخه . وربما كان أقرب الى الصواب أن نقرر أن أشراف الحجاز أحسوا بقوة بيبرس وثقل سلطانه عليهم ، فحاولوا من أول الأمر الدخول تحت سيادة حاكم آخر أكثر بعدا وأخف وطأة من الظاهر بيبرس .

أما من ناحية بيبرس نفسه فانه لم يرض عن ذلك الوضع ، فسعى سعيا حثيثا لتثبيت سلطانه على الحجاز ، كما سبق أن أشرنا . أما بالنسبة لتونس ، فان قيام أحد أمرائها باتخاذ لقب الخلافة كان معناه فتح باب العداء بين السلطان بيبرس وبنى حفص . وقد أشار المؤرخون الى أن اتخاذ أمير تونس لقب الخلافة ليس الا ادعاء ، وأنه كان لا يخاطب بلقب أمير المؤمنين الا فى بلاده [2] . على أن استياء بيبرس — من أمير تونس لم يمنع سلطان مصر من الاسراع الى التفكير فى نجدة تونس عندما دهمتها حملة لويس التاسع الصليبية سنة ١٢٧٠ . ومع أنه لا يوجد فى المراجع

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٢) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٢ ، أبو الفدا : المختصر ٣ ص ١٣٢ .

نص صريح يثبت أن المستنصر الحفصى كتب الى بيبرس يطلب مساعدته — مثلما كتب الى بقية حكام المسلمين — الا أن بيبرس رأى أن يتناسى الخصومة مع الحفصيين أمام الخطر الصليبى الذى يهدد ركنا هاما من أركان العـالم الاسلامى . لذلك بدأ السلطان بيبرس بالكتابة الى الحفصى يخبره بعزمه على مساعدته ، كما بادر بحفر الآبار فى الصحراء الغربية ليعتمد عليها الجند فى طريقهم الى تونس ؛ بل ان بيبرس أمـر عربان برقة فعلا بأن يسارعوا لنجدة تونس .

على أن السلطان بيبرس لم يكد يمضى فى استعداداته حتى جاءت الأخبار بموت لويس التاسع فى تونس وفشل حملته ، الأمر الذى جعل بيبرس يوقف استعداداته الحربية لمساعدة تونس . ومع أن السلطان بيبرس فرح لفشل حملة لويس التاسع عـلى تونس سنة ١٢٧٠ ، وعبر عن سروره فى كتب البشارة التى أرسلها الى سائر البلدان الاسلامية ابتهاجا بخلاص المسلمين من ذلك الخطر ؛ الا أنه اتخذ هذه الحملة الصليبية وسيلة للحط من قدر المستنصر الحفصى والاقلال من شأن خلافته . ويروى المقريزى أن رسول صاحب تونس قدم الى مصر سـنة ١٢٧١ يحمل هدية وكتابا للسلطان الظاهر بيبرس ، ولكن بيبرس استاء من أسلوب المخاطبة فى ذلك الكتاب وظن أن صاحب تونس تعمد عدم مخاطبة سلطان مصر بما يستحقه من تقدير . لذلك فقد اختار بيبرس أن يفرق هدية صاحب تونس على الأمراء دون أن يحتفظ لنفسه بنصيب منها ، كما رد عليه مستقبحا تظاهره بالمنكرات واستخدامه الفرنج . ويبدو

أن هذا الرد من جانب بيبرس على الحفصى كان عنيفا ، اذ عاب بيبرس عليه أنه لم يخرج لمقاتلة الصليبيين عندما هاجموا بلاده وانما هرب واختفى . ويضيف المقريزى أن بيبرس خوّف المستنصر الحفصى وأنذره وقال له « مثلك لا يصلح أن يلى أمور المسلمين » [1] . ولا شك فى أن هذه العبارة الأخيرة انما قصد بها بيبرس الى الحط من شأن خلافة الحفصى ، لأن المفروض فى الخليفة أن يكون أول من يخرج للجهاد والدفاع عن مصالح المسلمين وكيانهم .

وهكذا بدا بيبرس ممثلا للقوة الكبرى فى العالم الاسلامى ، فأخذ أمراء البلدان الاسلامية فى المشرق والمغرب يعملون له حسابا ، كما استباح هو لنفسه أن يتدخل فى كثير من شئون هؤلاء الأمراء . من ذلك ما يرويه المقريزى من أن الظاهر بيبرس انتهز فرصة وجوده فى الحجاز لتأدية فريضة الحج سنة ٦٦٧ هـ وكتب رسالة الى صاحب اليمن ينكر عليه أمورا ويقول له : « الملك هو الذى يجاهد فى الله حق جهاده ، ويبذل نفسه فى الذب عن حوزة الدين ، فان كنت ملكا فاخرج التق التتار ! » ولا يخفى علينا أن هذه العبارة فى حد ذاتها توضح لنا أن بيبرس اتخذ من جهاد المغول والصليبيين دعامة يمكن بها لنفسه فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٠١ .

الفصل السابع

بيبرس والدول المسيحية فى افريقية

وجدت فى افريقية فى العصور الوسطى دولتان مسيحيتان ربطتهما بمصر علاقات وطيدة اتخذت طابعا سلميا حينا وطابعا حربيا أحيانا . أما هاتان الدولتان فهما مملكة النوبة المسيحية التى ربطتها بمصر رابطة الجوار والحدود المشتركة ؛ ومملكة الحبشة التى ربطتها بمصر رابطة النيل والكنيسة . ومع كلتا هاتين المملكتين نشطت علاقات مصر على عهد السلطان الظاهر بيبرس .

* * *

مصر ومملكة النوبة :

أما عن بلاد النوبة فقد ربطتها بمصر فى القدم رابطتان قويتان هما رابطة الجوار ورابطة الكنيسة . فمن ناحية الجوار ، معروف أن النوبة هى البلاد التى تتاخم حدود مصر من ناحية الجنوب ، وأن هذه الحدود بين البلدين ليست بالحدود الفاصلة لأنه على الرغم من صحراء النوبة ، فان النيل يمثل شريانا هاما

يربط البلدين ويهيىء طريقا طيبا للانتقال من أحد البلدين الى الآخر . ومن ناحية الكنيسة كانت الصـلة قوية بين الكنيسة اليعقوبية بالنوبة والكنيسة المرقسية بالاسكندرية فكان بطريرك الاسكندرية هو الذى يرسم مطران النوبة ، كما كان يلجأ اليه النوبيون بين حين وآخر للاحتكام اليه فى فض مشكلاتهم الداخلية.

وعندما فتح المسلمون مصر سنة ٦٤٠ م فكر عمرو بن العاص فى فتح النوبة ، فأرسل عقبة بن نافع الفهرى للقيام بهذه المهمـة سنة ٦٤٢ ولكن عقبة لم يصادف نجاحا فى تحقيق غرضه [١] . وكان أن تجددت محاولة المسلمين فى النوبة مرة أخرى سنة ٦٥١ م على يد والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، الذى نجح فى التوغل جنوبا حتى دنقلة عاصمة النوبة فحاصرها حصـارا عنيفا حتى اضطر ملك النوبة الى طلب الصلح . وقد عرف الاتفاق الذى تم بين المسلمين والنوبيين عندئذ باسم البَقْط (أى العهد)، واشترط فيه أن يدفع صاحب النوبة لبيت المال فى مصر عددا من الرقيق يساوى عدد أيام السنة أى خمسة وستين وثلثمائة رأس من الرقيق سنويا ، مقابل قيام المسلمين بامداد النوبة بألف اردب من الغلال سنويا ، فضلا عن قدر من الحبوب الأخرى والأقمشة . ومن هذا يبدو أن اتفاقية البقط ليس فيها معنى الجزية أو خضوع النوبة سياسيا للمسلمين ، وانما كانت فى حقيقة أمرها نوعا من التفاهم الاقتصادى الذى يستهدف تحقيق صالح الفريقين . وقد

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ٢٣٧ .

اعتراف المراجع العربية نفسها بذلك الوضع ، فابن خرداذبة يقول : ان البقط ليس « بجزية ولا خراج » ، وابن الفرات يذكر البقط تحت عنوان « كتاب موادعة النوبة » ؛ والبلاذرى يقول عن البقط « ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق انما هى هدنة بيننا » [1].

على أنه يبدو أن اتفاقية البقط لم توقف العداء بين النوبة ومصر ، اذ تبرم النوبيون بما ألقته هذه الاتفاقية على كواهلهم من أعباء . وكان النوبيون قد اعتادوا منذ أيام الفراعنة الاغارة بين حين وآخر على حدود مصر الجنوبية نتيجة لفقر بلادهم من جهة وطمعا فى غنى مصر من جهة أخرى . وزاد هذا العداء الخلاف الدينى بعد أن أصبحت مصر دولة اسلامية . وليس هذا مجال الكلام عن اغارات النوبيين على مصر فى عصر الاخشيديين والفاطميين ، وانما تكفى الاشارة الى أن الحروب الصليبية أتت لتزيد من مظاهر العداء بين مصر الاسلامية ومملكة النوبة المسيحية .

ومن الثابت أن السلطان الظاهر بيبرس لم يكن هو البادىء بالعدوان على النوبة ، وانما تجمع أمام بيبرس من المشكلات الخاصة بتثبيت دعائم دولة المماليك واحياء الخلافة ثم محاربة الصليبيين والمغول ما كان كفيلا بصرف نظره عن النوبة ومشكلاتها . ولكن ملوك النوبة كانوا هم البادئين ، فانتهز داود ملك النوبة

---

(١) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ٩٢ ، تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٤٥ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٣٧ .

فرصة قيام السلطان بيبرس بتوجيه جيوشه ضد ارمينيا الصغرى للقيام بالعدوان على مصر سـنة ١٢٧٢ . فهاجم النوبيون ثغـر أسوان وأسروا كثيرا من أهله المسلمين ، كما أغاروا على ثغر عيذاب واعتدوا على من صادفوه من الناس اعتداء آثما يدل على تغلب الروح الصليبية على النوبة وملوكها [١] .

وكان أن ثار بيبرس — وهو السلطان العظيم الذى لم تثبت فى وجهه قوة المغول أو الصليبيين — عندما علم باعتداء ملك النوبة على مصر . وزاد من ثورة بيبرس أن اعتداء النوبيين هدد دولته فى أعظم موارد ثروتها وقوتها وهى التجارة ؛ لأن أسوان وعيذاب كانتا من أهم الثغور المصرية فى ذلك الوقت وتأتى عن طريقهما متاجر الشرق ووسط افريقية . واذا كانت الظروف التى أحاطت بالسلطان بيبرس قد جعلته يكتفى بمحاولة صد العدوان النوبى سنة ١٢٧٢ ، فانه ليس معنى ذلك أنه غفر لملك النوبة عدوانه الآثم ونقضه شروط البقط .

ولم تلبث أن أتيحت الفرصة لبيبرس فى أواخر سنة ١٢٧٥ عنـدما فر الى مصر شكنده ملك النوبة المخلوع يشـكو الى السلطان الظاهر بيبرس ما فعله به ابن أخيه داود الذى لم يكتف بعزله عن العرش بل أساء اليه دون أن يرعى صلة القربى . ولم يكن بيبرس فى حاجة الى مزيد من التحريض ضد داود الذى كانت اغارته على أسوان وعيذاب منذ ثلاث سنوات لا تزال عالقـة

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ١٠٩ (مخطوط) .

بالأذهان . لذلك أسرع السلطان باعداد حملة كبيرة تحت قيادة الأميرين شمس الدين أقسنقر الفارقانى وعز الدين الأفرم . ويبدو أن بيبرس اهتم باعداد هذه الحملة اعدادا خاصا ، فزودها بخيرة المقاتلين ، فضلا عن فرق الزراقين ورماة النفط ورجال الحراريق والزردخاناه .

وفى يناير سنة ١٢٧٦ تحركت حملة بيبرس قاصدة الى النوبة وصحبتها شكنده نفسه ، بعد أن أعطى بيبرس أوامر صريحة لقائدى الحملة بتسليم شكنده كل ما يتم فتحه من بلاد النوبة[١]. وقد صادفت هذه الحملة نجاحا كبيرا ، اذ أغار المماليك على قلعة الدر حيث قتلوا وسبوا كثيرا من الأعداء ، ثم تقدموا بعد ذلك الى جزائر ميكائيل عند شلال وادى حلفا ، حتى اضطر الملك داود الى الفرار بنفسه بعد أن وقع معظم رجاله قتلى وأسرى ، ومن جملة الأسرى كان أخوه شنكو وأمه وأخته . وهكذا ظل « السيف يعمل فيمن هناك حتى دخلوا كلهم فى الطاعة » ، وبذلك أقام المماليك شكنده فى الملك بدلا من داود وألبس التاج ، ثم عادت الحملة الى القاهرة حيث احتفل السلطان بيبرس برجاله احتفالا كبيرا . وتروى المراجع أن بيبرس استعرض الأسرى الذى بلغ من كثرتهم أن بيع الواحد منهم بثلاثة دراهم ، واشترط السلطان أن يراعى عند بيع الأسرى عدم التفرقة بين المرأة وغلامها ، وألا يباع شىء من الأسرى ليهودى أو نصرانى .

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ٣٩٨ .

على أنه يلاحظ أن جيوش بيبرس لم تترك النوبة الا بعد أن أخذوا على شكنده العهود والمواثيق بطاعة السلطان بيبرس والتعهد بالتزامات معينة مما اتخذ شكل اتفاقية بين الطرفين . وقد ذكر كل من النويرى ومفضل بن أبى الفضائل نص اليمين التى حلف عليها شكنده ملك النوبة الجديد بدنقلة للظاهر بيبرس سنة ١٢٧٦ ، وجاء فى ذلك اليمين « والله ! والله ! والله ! وحق الثالوث المقدس ، والانجيل الطاهر ، والسيدة الطاهرة العذراء .. اننى أخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذه للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس ، وانى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته .. » [1] .

أما شروط الاتفاق بين بيبرس وشكنده فكان أهمها : —

أولا : تنفيذ اتفاقية البقط القديمة ، بمعنى أن يعود ملك النوبة الى ارسال الرقيق الى مصر مقابل ارسال الغلال اليه . على أنه قرر على شكنده بعض الهدايا الاضافية للسلطان ، وهى — كما وردت فى المقريزى — ثلاثة فيلة ، وثلاث زرافات ، وخمسة فهود من الاناث ، ومائة من الصهب الجياد ، ومائة من الأبقار الجياد .

ثانيا : حرصت هذه الاتفاقية على مد السيادة المصرية مدا فعليا على بلاد النوبة ، وذلك لأول مرة منذ الفتح العربى لمصر . من ذلك أن الاتفاقية نصت على أن يكون نصف دخل بلاد النوبة

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٢٥٩ ب (مخطوط) ، مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٦ .

لسلطان مصر ، على أن يبقى النصف الآخر لعمارة البلاد وحفظها .
ثم ان بيبرس استولى على الجزء الشمالى من بلاد النوبة ؛ وقد قدر المقريزى هذا الجزء بربع تلك البلاد — ويشمل الجهات المتاخمة لحدود مصر بعد أسوان ، وهى الجهات المعروفة بأسماء الدر وأبريم وبلاد الجبل .

ثالثا : تعهد شكنده ملك النوبة بالعمل على الاستيلاء على كل متعلقات الملك داود وأسرته — من أموال ودواب وغيرها — وارسال ذلك الى السلطان .

رابعا : عرض على ملك النوبة الاسلام أو الجزية أو القتال ، فاختار شكنده الجزية ، وتعهد بأن يدفع كل واحد من رعاياه دينارا عينا فى كل سنة .

خامسا : اتفق على اطلاق سراح المسلمين الذين كانوا بالنوبة ، لا سيما أولئك الذين أسرهم داود من أهل أسوان وعيذاب فأفرج عنهم « وأعيدوا الى أوطانهم » . كذلك قبض المماليك على عشرين أميرا من أمراء النوبة ليكونوا رهائن تحت تصرف السلطان .

وعلى هذا الوجه استطاع السلطان بيبرس أن يبسط سيطرته على مملكة النوبة ، فأنشأ ديوانا للنوبة بالقاهرة وعهد بالاشراف عليه الى الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا ، ومهمته الاشراف على الجزية والخراج الواردة من النوبة وتعيين العمال لذلك [1] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٢٣ .

ولا أدل على حرص بيبرس على ضمان اشرافه على النوبة من أنه فى تنظيمه للبريد أنشأ طريقا هاما يبدأ من قوص ثم يتشعب شعبتين احداهما الى أسوان والنوبة والثانية الى عيذاب [1] . وقد اعترف جمهرة المؤرخين أن حملة بيبرس على النوبة حققت مالم تحققه أية حملة أخرى على تلك البلاد منذ أيام الفتح العربى لمصر . ومن ذلك ما يقوله مفضل بن أبى الفضائل من أن ما قام به بيبرس من فتوحات فى بلاد النوبة يعتبر « مما يفوق به على كل ملك تقدمه » . أما ابن الفرات فيقارن بين الغزوات التى قام بها حكام مصر فى بلاد النوبة منـــذ أيام عمرو بن العاص وبين ما قام به الظاهر بيبرس فيقول « كل هذه غزوات وانما الفتح الذى وقع فى زمن الملك الظاهر » [2] .

على أن قصة النوبة فى عهد بيبرس لم تقف عند ذلك الحد ، اذ لم يلبث أن وقع داود — ملك النوبة السابق الذى أغار على أسوان وعيذاب — أسيرا فى قبضة بعض خصومه فأرسلوه الى السلطان بيبرس الذى أمر بحبسه مع أمه وأخيه حتى مات فى سجنه .

والواقع ان بيبرس لم يستطع أن ينسى ما حل ببلاده على يد النوبيين ، فظل يراقب أحوال النوبة عن كثب . ويبدو أنه لم يطمئن الى شـــكنده ، فعهد الى أحـــد الباطنية الفدائية

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٧٤ .

(٢) مفضل ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٤٤٦ ، تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٤٥ .

— واسمه اسماعيل — بالتردد على النوبة سرا ومراقبة شكنده وأحواله ، خوفا من أن يغدر بالعهد ويفعل بأسوان وعيذاب مثلما فعل داود . وكان لاسماعيل هذا زميل رافقه فى بعض سفرياته الى النوبة ، فانقض ذلك الزميل على شكنده وفتك به فجاء ذلك ختاما لصفحة مثيرة فى تاريخ العلاقات بين مصر والنوبة فى عهد السلطان الظاهر بيبرس .

وهكذا امتد نفوذ بيبرس بعيدا ، الى اليمن والنوبة جنوبا والى العراق وسلاجقة الروم شمالا ، وفى ذلك قال بعض الشعراء المعاصرين :

تدبـــر الملك من مصر الى يمـــن
الى العراق وأرض الروم والنوبى

* * *

مصر والحبشة :

ان الروابط بين الكنيسة الحبشية وكنيسة الاسكندرية ترجع الى العصر الأول للمسيحية ، عندما أسهمت مصر وكنيستها فى نشر المسيحية فى الحبشة . وكان أن أقر مجمع نيقية المسكونى سنة ٣٢٥ تبعية كنيسة الحبشة لبطريكية الاسكندرية ، ومنـذ ذلك الوقت تقوم هذه البطريكية بتعيين مطارنة مصريين لرئاسة كنيسة الحبشة . ولم يحل الفتح العربى لمصر سنة ٦٤٠ واعتناقها للاسلام دون استـمرار الصـلة بين كنيسة الحبشـة وكنيسة الاسكندرية ، اذ جرى الوضع — كلما خلت مطرانية الحبشة —

على أن تأتى سفارة من الحبشة تحمل الهدايا والأموال لبطرك الاسكندرية ولحاكم مصر وتطلب ترسيم مطران جديد . ومن الواضح أن منصب المطران كان خطيرا فى الحبشة ، اذ كان الدعامة الكبرى التى يعتمد عليها الملك فى حكمه ويستمد منها التأييد فى أعماله وحروبه . فاذا حدث نزاع حول العرش فى الحبشة فان أول ما كان يسعى اليه الفريقان المتنازعان هو كسب تأييد المطران ومن خلفه الكنيسة المرقسية بالاسكندرية .

واذا كان بطاركة الاسكندرية قد حرصوا دائما على استمرار تبعية الكنيسة الحبشية لهم ؛ فان هذه الصلات بين بطاركة الاسكندرية من ناحية والحبشة وملوكها من ناحية أخرى كثيرا ما أثارت شكوك حكام مصر وسلاطينها وبخاصة فى عصر الحروب الصليبية . وقد صادف قيام دولة المماليك فى حكم مصر حدوث نزاع حول عرش الحبشة بين أسرتى سالمون وزاجوى ، حتى انتهى الأمر بانتصار البيت الأول واختيار أحد أفراده — وهو يقونو أملاق — ملكا على الحبشة ، فى حين استرضى بيت زاجوى بتعيين أحد أبنائه حاكما على مقاطعة لاستا . ويهمنا من أمر هذا النزاع أن ملك الحبشة الجديد — يقونو أملاق — أراد أن يدعم نفوذه ويثبت مركزه فى بلاده ، فكتب رسالة الى السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٧٣ يطلب فيها « أن يجهز له مطران من عند البطرك » [1] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦١٥ — ٦١٦ .

ويفهم من الرسالة التى أرسلها ملك الحبشة الى بيبرس ، أن السلطان الظاهر كان قد أرسل من قبل سفارة الى الحبشة ، وأن هذه السفارة المصرية لم تتمكن من انجاز مهمتها فى سرعة فتأخرت عودتها بسبب الحروب الأهلية داخل بلاد الحبشة . يدل على ذلك أن ملك الحبشة أخذ يعتذر للسلطان فى رسالته عن تعويق رسل بيبرس ، وحاول أن يثبت حسن نيته للسلطان . وتشير جميع القرائن الى تخوف ملك الحبشة فعلا من بيبرس ، بدليل أنه لم يبعث برسالته الى السلطان مباشرة وانما أرسلها عن طريق الملك المظفر صاحب اليمن ليشفع له عند السلطان . هذا الى أن ملك الحبشة بالغ فى رسالته فى التذلل للسلطان بيبرس ، فوصف نفسه بأنه « أقل المماليك يقبل الأرض وينهى » ؛ كما وصف جند الحبشة بأنهم « كلهم غلمانك وتحت أوامرك .. وهذا الخلق كلهم يقولون آمين بطول بقاء عمر سلطاننا مالك مصر ويهلك الله عدوه » (١) .

على أن السلطان بيبرس كان حانقا فعلا بسبب تعويق سفارته فى الحبشة ، وزاد من غضبه أن ملك الحبشة لم يرع التقاليد المرعية فى طلب المطران فلم يتصل بالسلطان بيبرس مباشرة وانما توسط اليه عن طريق صاحب اليمن . هذا الى أن ملك الحبشة لم يرسل الهدايا والأموال والرقيق الى بيبرس كما هى العادة عند طلب مطران جديد . واذا كان المقريزى يذكر أن بيبرس

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٤٦ (مخطوط) .

أجاب ملك الحبشة الى طلبه ، فان هذه الرواية يثبت عـــدم صحتها أن الحبشة استوردت بعد ذلك مطرانا من بلاد الشام .

* * *

وهكذا يكون السلطان الظاهر بيبرس قد أدرك أهميـــة العلاقات الافريقية لمصر ، وحرص على العناية بتلك العلاقات فى نفس الوقت الذى اهتم فيه بالجناح الآسيوى لدولته .

الفصل الثامن

حكومة بيبرس

وصف أبو المحاسن الظاهر بيبرس بأنه : « كان يحب أن يطلع على أحوال أمرائه وأعيان دولته ، حتى لم يخف عليه من أحوالهم شيء » . أما المقريزى فقال ان أمراء الظاهر بيبرس كانوا يخافونه مخافة شديدة ، حتى انه لما مرض لم يدخل عليه أحد منهم الا باذن .

والواقع ان أهم ما امتاز به بيبرس فى حكمه انما هو الحزم واليقظة ، فقد عرف عنه حزمه الفائق الذى انقلب أحيانا الى نوع من الشدة والقسوة ، جعلت بعض المؤرخين يصفونه بالظلم ، كذلك اشتهر عن بيبرس يقظته التامة حتى انه أشرف بنفسه على كل صغيرة وكبيرة فى شئون دولته الواسعة . وتفسر غالبية المؤرخين هذا السلوك من جانب بيبرس برغبته فى اقرار العدالة وخوفه من أن تتعرض رعيته لظلم الحكام . فالمؤرخ أبو المحاسن يقول « ... وكل ذلك من كثرة عدله وانصافه للرعية والنظر فى أمورهم وانصاف الضعيف من المستضعف والذب عنهم من العدو

المخذول ، رحمه الله وعفا عنه ... »[1] كذلك يذكر المؤرخ نفسه أن بيبرس كره أن يسكن امراؤه داخل القاهرة خوفا من أن يقوم أتباع الأمراء ومماليكهم وحواشيهم بانزال المظالم بالرعية ، فأنشأ للأمراء دورا كثيرة خارج القاهرة . وهكذا يبدو من واقع ماذكره المؤرخون أن بيبرس توخى العدل فى حكمه ؛ وربما كانت رغبته فى اقرار العدالة هى التى دفعته الى الخروج متنكرا بين حين وآخر للوقوف على أحوال رعيته وتفقد شئونهم ؛ فاذا صادف خللا أو تهاونا عاقب المسئولين عن ذلك الخلل والتهاون فى حزم وعنف . ومن ذلك ما يرويه المقريزى من أن بيبرس قام سنة ١٢٦٤ م باحدى جولاته التفتيشية فى اقليم الغربية « فصار يسير منفردا فى خفية ويسأل عن والى الغربية الأمير ابن الهمام وعن سيرة نوابه وغلمانه ومباشريه ، فذكرت له عنه سيرة سيئة ، فقبض عليه وأدبه وأقام غيره » .

وحدث فى سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) أن خطر للسلطان بيبرس وهو بالشام أن يتوجه الى مصر فجأة ليقف على أحوالها فى غيابه ، فارتدى بعض أسمال بالية « ولبس جوخة مقطعة وتعمم بشاش دخانى عتيق » حتى لا يعرفه أحد . وأخذ السلطان يتنقل من مدينة الى أخرى فى فلسطين ، وهو فى طريقه الى مصر ، فكان فى كل مكان يتعرف على أخبار الولاة وسياستهم فى الحكم . ولم يشعر أمراء السلطان فى القاهرة وابنه الملك السعيد الا وبيبرس

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٧ .

وسطهم ، فى الوقت الذى كانت كتب السلطان تفد اليهم باستمرار لتوهمهم أنه بالشام .

ويذكر المؤرخون أنه بلغ من حيطة بيبرس وحرصه على التنكر والتخفى لمفاجأة نوابه ، أنه كان يمضى أحيانا وقتا طويلا « والناس بمصر والشام لا يعرفون شيئا من خبر السلطان : هل هو فى الشام أو الحجاز أو غيرهما . ولا يستطيع من مهابته والخوف منه أحد يتكلم » . وقد حدث عندما عزم السلطان بيبرس على أداء فريضة الحج أن أحاط ذلك بالسرية التامة ، فلما صرح أحد حجابه — وهو الأمير جمال الدين بن الداية — بأنه يشتهى أن يتوجه الى الحجاز صحبة السلطان ، أمر بيبرس بقطع لسانه « فما تفوه أحد بعدها بذلك ! »

* * *

ترتيب وظائف الدولة :

واذا كان السلطان الظاهر بيبرس يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر ، فان السبب فى ذلك لا يرجع الى جهوده فى حماية الدولة ودفع الأخطار عنها فحسب ، بل أيضا لأنه هو الذى وضع نظامها الادارى ونظم كثيرا من قواعد الحكم ، فضلا عن استخدامه بعض النظم الجديدة التى لم تكن معروفة من قبل. وفى ذلك يقول المؤرخ أبو المحاسن « والملك الظاهر هو الذى ابتدأ فى دولته بأرباب الوظائف من الأمراء والأجناد ، وان كان

بعضها قبله فلم تكن على هذه الصيغة أبدا » [1] .

ومن الواضح أن سلاطين مصر منذ أيام صلاح الدين اضطروا إلى ترك البلاد مددا طويلة بسبب انشغالهم بحرب الصليبيين بالشام . ولما كان هذا الوضع يتطلب وجود من ينوب عن السلطان فى مصر لرعاية أمورها ، فقد أنشئت لذلك وظيفة نائب السلطان . وكان أن أعاد السلطان بيبرس وظيفة نائب السلطنة ، وأول من ولى هذه الوظيفة فى عهده هو الأمير بدر الدين بيليك الخازندار . أما اختصاصات نائب السلطنة فأهمها أنه كان يقوم مقام السلطان أثناء غيابه ويشترك معه فى توزيع الاقطاعات وغيرها من مهام الدولة الكبرى .

ويبدو أن هذا النفوذ الواسع الذى تمتع به نائب السلطنة قد جاء على حساب سلطة الوزير . فعلى الرغم من أن السلطان بيبرس احتفظ بوظيفة الوزارة ، الا أن الوزير فى عهده كان محدود النفوذ بسبب طغيان نفوذ نائب السلطنة عليه . ومع ذلك فقد كان مفروضا فى الوزير أن يكون مستشارا للسلطان فى أمور الدولة فضلا عن قيامه بتنفيذ أوامر السلطان وخاصة فيما يتصل بالعلاقة بينه وبين رعيته . وقد تولى الوزارة فى عهد السلطان بيبرس الصاحب بهاء الدين بن حنا ، الذى حرص بيبرس على اخباره أولا بأول بأنباء فتوحه وحروبه فى الشام وآسيا الصغرى . واذا كان الوزير هو مستشار السلطان ومنفذ رغباته ،

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٣ .

فانه كان لا بد للسلطان فى تنقلاته الكثيرة من وزير يصحبه ويرافقه ، غير الوزير القائم فى القاهرة . لذلك وجد وزير آخر أطلق عليه اسم وزير الصحبة ، وكان يصاحب السلطان فى أسفاره العديدة .

أما بقية الوظائف الكبرى التى استحدثها بيبرس أو جددها فكانت كالآتى ، وفق ماذكره أبو المحاسن [1] :

١ — أمير سلاح ؛ وهو الذى كان يتحدث على السلاح دارية ويناول السلطان آلة الحرب والسلاح فى يوم القتال .

٢ — أمير مجلس ؛ وكانت وظيفته فى عهد بيبرس أن يتحدث عن الأطباء والكحالين والمجبرين . ويؤكد أبو المحاسن أن وظيفته كانت جليلة القدر ، بل أكبر قدرا من أمير سلاح .

٣ — رأس نوبه ؛ وكان « الملك بيبرس أول من أحدثها فى مملكة مصر » . ويقوم صاحب هذه الوظيفة بالأخذ على المماليك السلطانية والضرب على أيديهم .

٤ — الحاجب ؛ وقد جدّد هذه الوظيفة السلطان بيبرس ؛ وكانت مهمته فى الأصل ادخال الناس على السلطان حسب أهميتهم وأهمية مراكزهم ؛ ولكنه صار يفصل بين الأمراء والجنود بعد الرجوع الى السلطان أو نائب السلطنة .

---

(١) ابو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٨٣ ـ ١٨٦ .

٥ — الخازندار ، ومهنتـه التحـدث عن خـزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك .

٦ — أمير أخور ، ويقوم بالاشراف على اسطبل السلطان ورعاية ما فيه من خيول .

٧ — السراخور ، وهو كبير الجماعة الذين يتولون علف دواب السلطان .

٨ — الجمدار ، وهو الذى يتصـدى لالباس السـلطان ثيابه .

* * *

والى جانب هذه الوظائف الكبرى ، وجدت وظائف أخرى عديدة فى حكومة بيبرس مثل وظيفة الوالى الذى كان يقوم بعمل الشرطة فى المدن الكبرى كالقاهرة والفسطاط ، فكان يحافظ على الأمن ويقبض على المفسدين واللصوص . ومثل صاحب العسس وكان يتولى الاشراف على مطافىء الحريق ، فيجلس بعد صـلاة العشاء بمحطة المطافىء قرب الغورية الحالية وأمامه مشعل مضىء طوال الليل ، ومعه جماعة من السقائين والنجارين على استعداد لاطفاء أى حريق ينشب بالمدينة .

كذلك وجدت وظائف تتصل بالنواحى الدينية والكتابية ، وسنشير فيما بعد الى الوظائف ذات الصبغة الدينية والعلميـة ، مكتفين فى هـذا الموضع بالاشـارة الى الوظائف الكتابية والانشائية . وقـد تركزت هـذه الوظائف الأخيرة فى ديوان الانشاء ، الذى قام فى ذلك العصر بمهام وزارة الخارجيـة فى

عصرنا ، فوردت اليه المكاتبات من جميع البلدان الخارجية التى ربطتها بمصر علاقات ، وصدرت منه مكاتبات السلطان الى ملوك تلك البلدان وحكامها . ومن الواضح أن نشاط سلطنة المماليك على عهد السلطان بيبرس واتساع نطاق علاقاتها الخارجية ، ترتب عليه ازدياد أهمية ديوان الانشاء ، الذى تولى رياسته فى ذلك العهد الأديب فخر الدين بن لقمان ، وهو من الكتاب الذين اشتهروا بسعة الاطلاع والمقدرة فى فن الانشاء [1] . وكان ديوان الانشاء فى ذلك العصر يضم طبقتين من الكتاب ، تعرف الأولى بكتاب الدست وهم الذين يقرأون القصص والشكاوى على السلطان ، وتعرف الثانية بكتاب الدرج وكانوا يقومون بتدوين ما يأمرهم به صاحب الانشاء من المكاتبات والمراسيم [2] .

وهكذا تمتعت مصر فى عهد السلطان بيبرس بجهاز حكومى ممتاز حقق للسلطان حسن الادارة فى الداخل وحسن السمعة وعلو المنزلة فى الخارج .

* * *

ولاية العهد :

أما عن ولاية العهد ، فيلاحظ أن المماليك آمنوا ايمانا راسخا بفكرة « الخشداشية » أى الزمالة ، فهم جميعا زملاء لا فضل لمملوك على آخر الا بما تمتع به من مواهب وقوة وصفات

(١) محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس ص ١٣٥ .
(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١ ص ١٣٧ .

خاصة . وقد أدت هذه الفكرة بالمماليك الى بغض مبدأ وراثة الملك ، لأنهم ماداموا جميعا سواسية وزملاء ، فليس هناك مايدعو لأن يحتكر أحدهم الملك فى ذريته ؛ فالملك لأقوى الأمراء بعد وفاة السلطان الحاكم أو مقتله . واذا وجدت حالات نجح فيها بعض سلاطين المماليك فى تأسيس بيوت احتفظت بالحكم مدة طويلة — كما حدث فى بيت قلاون — فان هذه الحالات كانت خروجا على تلك القاعدة وذلك المبدأ .

وثمة قصة كانت تتكرر عقب وفاة كثير من السلاطين ، اذ يسرع الأمراء الى تعيين ابن السلطان المتوفى فى منصب السلطنة علاجا للموقف حتى يظهر بين صفوفهم الرجل القوى الذى يستطيع أن يتغلب على منافسيه من كبار الأمراء ، وعندئذ يتم عزل ذلك الابن فى غير صعوبة وقيام أقوى الأمراء فى الحكم : وكان هذا هو ما حدث عقب مقتل السلطان المعز أيبك اذ أقام المماليك ابنه الصغير عليا فى السلطنة ، لا عن ايمان بمبدأ الوراثة ولكن ريثما يظهر بين صفوفهم الرجل القوى الذى يستطيع أن يطيح بذلك الابن ويتولى هو السلطنة . وعلى الرغم من أن بيبرس عاصر الأحداث التى أدت الى عزل على بن أيبك وقيام قطز فى السلطنة ، الا أن غريزة الأبوة غلبت عليه فأراد أن يضمن وراثة الملك من بعده لابنه السعيد . وربما اغتر السلطان بيبرس بما حققه من أعمال ، وبما وصل اليه من نفوذ واسع لم يدركه أحد قبله من سلاطين المماليك ، فظن أنه حقق لنفسه ولبيته من المجد

ما يكفل لابنه الملك السعيد القيام فى الحكم من بعده دون اعتراض من كبار الأمراء .

وكان أن استغل بيبرس فرصة حركة التتار على شمال الشام سنة ١٢٦٤ لتنفيذ غرضه . ويروى المقريزى أن الأمراء أشاروا على بيبرس عندئذ بسلطنة ولده ليقيم بديار مصر أثناء غيبة أبيه فى حرب المغول بالشام . هذا وان كانت نية بيبرس فى تمليك ابنه من بعده قد ظهرت قبل ذلك بعامين عندما عرض بيبرس عساكر مصر « وحلّفهم لولى عهده الملك السعيد ناصر الدين خاقان بركة خان » (١) .

ومهما يكن من الأمر ، فقد احتفل بيبرس سنة ١٢٦٤ بسلطنة ابنه الملك السعيد احتفالا كبيرا ، فأركبه بشعار السلطنة وخرج السلطان بنفسه فى ركابه ماشيا على قدميه ، وقد زينت القاهرة أحسن زينة . وبعد ثلاثة أيام جمع بيبرس الأمراء والقضاه والفقهاء وقرىء تفويض عهد السلطنة للملك السعيد ، وجاء فيه « ... كانت شجرتنا المباركة قد امتد منها فرع تفرسنا فيه الزيادة والنمو وتوسمنا منه حسن الجنا المرجو ... فليتقلد الولد ما قلدناه من أمور العباد ، وليشركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد ... » (٢) .

على أن هذه المظاهرة الضخمة لم تفلح فى تثبيت مركز الملك

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٦٨ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٨١ ــ ٨٥ .

السعيد فى السلطنة بعد وفاة بيبرس ، اذ كان غريبا على الأمراء أن يلى السلطنة سلطان غير مماليكى الأصل ؛ وهكذا تعرض أبناء الظاهر بيبرس لدسائس الأمراء حتى انتهى الأمير بقيام السلطان قلاون فى الحكم .

* * *

تنظيم البريد :

ولم يكن غريبا أن يهتم بيبرس بأمر البريد ، وهو السلطان الذى حرص على أن يشرف اشرافا دقيقا على مختلف أجزاء دولته الواسعة ، وعلى أن يراقب أعداءه من المغول والصليبيين مراقبة دقيقة تمكنه من الخروج اليهم وصدهم فى الوقت المناسب .

وقد أجمعت المراجع على أن السلطان الظاهر بيبرس اهتم بأمر البريد اهتماما فائقا ونظمه تنظيما دقيقا ، وانفق على ذلك الأموال الطائلة حتى غدا فى عصره مثلا بارزا لما وصل اليه البريد فى الدولة الاسلامية فى العصور الوسطى من تقدم ورقى [١] .

ويروى ابن فضل الله العمرى كاتب الانشاء فى دمشق أن السلطان الظاهر بيبرس طلب منه مواصلته بالأخبار وموافاته بما يتجدد من أخبار التتار والفرنج ، وقال له : « ان قدرت أن لاتبيتنى كل ليلة الا على خبر ولا تصبحنى الا على خبر فافعل ! » .

وهكذا أصبحت قلعة الجبل فى مصر مركزا لشبكة ضخمة من

---

(١) نظير حسان سعداوى : نظام البريد فى الدولة الاسلامية ص ١٢٣ .

طرق البريد . وبلغ من دقة نظام البريد فى عهد بيبرس أن أخبار الشام كانت تصله مرتين فى الاسبوع ، فصار « يتحكم فى سائر المماليك من العزل والولاية وهو مقيم بقلعة الجبل » . [١] وكان خط البريد الذى يذهب الى الشـام يبدأ من قلعة الجبل الى دمياط ثم الى غزة ، ومنها الى سائر بلاد الشام ؛ وهناك خط من غزة الى اللد ومنها الى قاقون والى عين جالوت ثم الى بيسان والى دمشق . هذا عدا الخطوط الأخرى المتجهة الى حمص وحماة وحلب والرحبة وطرابلس وبيروت وصيدا وبعلبك ... الخ [٢] .

أما عن خطوط البريد داخـل مصر فكانت ثلاثة خطوط رئيسية أولها خاص بالوجه القبلى ويتجه من قلعة الجبل الى قوص محاذيا النيل ، ومن قوص يتفرع الى فرعين : فرع يتجه الى أسوان فبلاد النوبة ، وفرع يتجه الى عيذاب وهو الميناء الهام على البحر الأحمر . وثانيها خاص بالاسكندرية عن طريق قليوب ومنوف والمحلة الكبرى ، هذا غير خط آخر الى الاسـكندرية عن طريق البحيرة ويمر بدمنهور . وثالثها خط دمياط عن طريق سرياقوس وبلبيس .

وقد نظم السلطان بيبرس هـذه الخطوط كلها بحيث كان

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٦ .

(٢) للوقوف على هذه الخطوط بالتفصيل انظر : القلقشندى : صبح الاعشى ج ١٤ ص ٣٧١ – ٣٨٥ ، ابن فضـل الله العمرى : كتاب التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٨٧ – ١٩٢ .

كل خط منها ينقسم الى مراحل أو محطات لايزيد بعد احداها عن الأخرى على ثمانية وعشرين ميلا . وزودت كل محطة من هذه المحطات بما يحتاج اليه موظفو البريد وخيولهم من ماء وطعام وعلف ومأوى [1] . ولا يخفى علينا أن الاهتمام بطرق البريد فى عهد بيبرس ، وانفاق الأموال الطائلة فى سبيل صيانتها وتأمينها وتوفير سبل الحياة والراحة لسالكيها ، كان مظهرا قويا من مظاهر استتباب الأمن فى عهده حتى قال القلقشندى : « وسرعان مابدلت المراكز الخوف أمنا والوحشة أنسا » .

وكان يراعى فى (البريدى) صفات أهمها : الأمانة المطلقة والذكاء والفطنة وقوة الذاكرة « فاذا كان الرسول متمكنا من عقله عالما بما يأتى وما يذر ، كفى ملكه مؤنة غيبته وأجاب عن كل ما يسأل عنه ، واذا كان بخلاف ذلك انعكست القضية ورجع على مرسله بالوبال » .

والمعروف أن ادارة شئون البريد فى مصر فى ذلك الحين كانت من اختصاص ديوان الانشاء ، فكان صاحب هذا الديوان مسئولا عن تسلم الرسائل الواردة الى السلطان وابلاغها اليه ، كما كان مكلفا بتصدير الرسائل الصادرة عن السلطان الى مختلف أنحاء دولته . ولكى يتميز عامل البريد بعلامة مميزة يعرفه بها أرباب المراكز فيسهلون له مهمته ، جعلت هناك ألواح من فضة تحفظ لدى الدوادار ، ويتسلم البريدى أحدها عند خروجه

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١٤ ص ٣٧٢ .

فيعلق اللوح فى عنقه بحيث يتدلى على صدره تحت ثيابه وتظهر الشرابة المربوطة بها اللوح على ظهره فوق ثيابه . وبذلك يعرف كل من يرى هذه الشرابة خلف ظهره أنه بريدى ، ولا يزال كذلك حتى ينهى مهمته ويعود فيسلم اللوح الى ديوان الانشاء [1] .

ولم تقتصر عناية السلطان بيبرس على البريد البرى ، بل اهتم أيضا بالبريد الجوى . والمعروف أن المسلمين عرفوا استخدام الحمام الزاجل فى نقل البريد منذ أوائل العصر العباسى . وقد أنشئت للحمام محطات خاصة بها أبراج ، فاذا نزلت الحمامة الى البرج تلقاها البراج وأخذ الرسالة لينقلها الى حمامة أخرى تطير بها لايصالها الى المحطة التالية وهكذا . ومن الثابت أن المغول دمروا كثيرا من هذه الأبراج والمحطات الخاصة بالحمام الزاجل ، عندما أوغلوا فى بلاد الشام فى أوائل عصر المماليك ، ولكن السلطان بيبرس أعاد اصلاحها وعنى بالبريد الجوى عناية لاتقل عن البريد البرى . وقد روعى فى الرسائل التى يحملها الحمام الزاجل أن تكون على نوع خاص من الورق الخفيف وأن تكون مختصرة تحوى ما قل ودل ، حتى لا تعوق الحمامة عن الطيران السريع . وكانت الرسالة توضع عادة تحت جناح الحمامة أو ذيلها بطريقة خاصة ، فاذا كانت الرسالة هامة كتبت من نسختين وأرسلت مع حمامتين حتى اذا ضلت احداهما الطريق أو قتلت أو افترستها

---

(١) نظير حسان سعداوى : نظام البريد فى الدولة الاسلامية ص ١٢٩ .

الجوارح ، أمكن الاعتماد على وصول الرسالة الأخرى [1] .

وكانت قلعة الجبل فى عهد بيبرس مركز أبراج الحمام الزاجل مثلما كانت المركز الرئيسى للبريد البرى . ومن قلعة الجبل كانت تنتشر محطات البريد الجوى الى بلبيس والصالحية وغزة ومنها الى القدس أو الى بيسان ودمشق . ويبدو أن الحمام الزاجل كان يخصص لنقل الرسائل العاجلة الخطيرة ، بحيث اذا وصلت رسالة مع حمامة الى القلعة حملت الرسالة مباشرة الى السلطان وعرضت عليه .

وهكذا تمكن بيبرس من الاشراف اشرافا دقيقا على أجزاء دولته وعلى نوابه وموظفيه فى الاقاليم البعيدة عن طريق العناية بالبريد . ولا شك أن عناية بيبرس بالبريد جاءت جزءا متمما لاصلاحاته الادارية ، وفى الوقت نفسه جاء تدعيم نظام البريد فى عهد بيبرس تدعيما لتلك الاصلاحات وضمانا لحسن تنفيذها .

* * *

الأسطول

لم تقتصر عناية بيبرس على العناية بالجيش فحسب بل اهتم أيضا بأمر الأسطول . فالخطر الصليبى والمغولى فى بلاد الشام كان لا يزال قائما ، ولم يكن الصليبيون قوة برية فحسب ، بل كانوا قوة بحرية أيضا . وحسبنا ما قام به ملوك جزيرة قبرص فى

---

(١) محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس ص ١٣٦ ــ ١٣٧.

ذلك الوقت من تقديم المعونة عن طريق البحر للصليبيين بالشام فضلا عن تهديدهم تجـارة دولة المماليك فى شرق حوض البحر المتوسط . هذا بالاضافة الى الأخبار التى كانت ترد بين الحين والحين من غرب أوربا باستعداد لويس التاسع ملك فرنسا للقيام بحملة صليبية جديدة على الشرق ، وهى الأخبار التى ثبتت صحتها عندما هاجم لويس التاسع تونس سنة ١٢٧٠ . ولهذه الأسباب كلها اهتم السلطان الظاهر بيبرس بأمر الاسطول والبحرية اهتماما يسترعى النظر .

وقد أجمعت المراجع على أن الاسطول المصرى كان قد وصل الى حالة من الضعف عند قيام بيبرس فى السـلطنة . فالمقريزى يقول « وكان قد أهمل أمر الأسطول بمصر وأخذ الأمراء رجاله ».. ولكن بيبرس حرص على احياء الاسطول واعادته الى ما كان عليه فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فمنع النـاس من أن يتصرفوا فى أخشاب السفن ، وأعاد رجال الاسطول الى الخدمة ، وأمر ببناء عدد من «الشوانى» ، وهى السفن الحربية الكبيرة حتى « تكامل عنده ببر مصر ما ينيف على أربعين قطعة وعدة كثيرة من الحراريق والطرائد ونحوها » [١] . وتذكر المراجع أن السلطان بيبرس كان ينزل بنفسه الى دار الصناعة بجزيرة الروضة ويشرف على بناء السفن « ويرتب ما يجب ترتيبه » ، فضلا عن أنه أنشأ عدة «شوانى» بثغرى دمياط والاسكندرية . ولا شك فى أن شعور

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٧ .

بيبرس بقوة اسطوله هو الذى شجعه على محاولة غزو جزيرة قبرس سنة ١٢٧٠ كما سبق أن ذكرنا . واذا كانت هذه المحاولة قد انتهت بتحطيم الاسطول المصرى بفعل الرياح على شاطىء قبرس ، فان ذلك لم يدفع بيبرس الى اليأس وانما سارع الى انشاء أسطول جديد، حتى أنشأ من السفن «ضعفى ما انكسر»

* * *

النشاط العلمى والدينى

وقد وصف المؤرخ أبو المحاسن السلطان الظاهر بيبرس فقال « وكان يقرب أرباب الكمالات فى كل فن وعلم ؛ وكان يميل الى التاريخ وأهله ميلا زائدا ويقول : سماع التاريخ أعظم من التجارب ! » .

ولا أدل على تقدير بيبرس للعلم من تشجيعه للعلماء . ذلك أنه عاصر السلطان بيبرس مجموعة من العلماء البارزين الذين خلدت مؤلفاتهم ذكراهم حتى اليوم ؛ وهؤلاء جميعا حظوا بعطف السلطان بيبرس فولاهم المناصب الهامة وجعلهم موضع ثقته ، واختار بعضهم للسفارات الهامة التى أرسلها الى معاصريه من الملوك والأمراء . ومن هؤلاء القاضى ابن خلكان صاحب كتاب « وفيات الأعيان » ؛ وقد عينه السلطان بيبرس فى منصب قاضى قضاة دمشق تقديرا لفضله وعلمه . أما المؤرخ جمال الدين ابن واصل صاحب كتاب «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» — وهو من كتب التاريخ الثمينة التى يعتمد عليها فى تاريخ الدولة

الأيوبية وأوائل دولة المماليك — فقد كان موضع ثقة السلطان بيبرس ، حتى اختاره السلطان سنة ١٢٦٢ سفيرا الى منفرد بن فردريك الثانى ملك الصقليتين وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة [١] . كذلك برز فى عهد السلطان بيبرس الأديب ابن عبد الظاهر الذى امتازت رسائله بأسلوب قوى جذاب، فقربه السلطان وعينه كاتبا لسره بديوان الانشاء ، واختاره للقيام ببعض المهام الخطيرة.وقد كتب ابن عبد الظاهر عدة كتب لم يصل الينا معظمها للأسف ،وهو أيضا الذى كتب تفويض عهد السلطنة للملك السعيد ابن السلطان بيبرس .

وامتاز عهد بيبرس كذلك بظهور جماعة من الشعراء المبرزين مثل الشيخ عبد العظيم بن الجزار ، ومجاهد بن أبى الربيع سليمان مرهف المصرى [٢] . على أن أهم شعراء ذلك العصر كان شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى ، صاحب قصيدة البردة فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد حظى هو الآخر بعطف بيبرس فولاه عدة مناصب هامة بالقاهرة وأقاليم مصر .

ثم ان حب بيبرس للعلم لم يقف عند حد تشجيع العلماء والعطف عليهم وتقريبهم ، وانما امتد أيضا الى العناية بانشاء

---

(١) انظر المقدمة التى كتبها عن حياة ابن واصل الدكتور جمال الدين الشيال ، ناشر كتاب « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » . ج ١ ص ٤ .

(٢) محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس ص ١٦٠ — ١٦١.

المؤسسات التعليمية ، وفى مقدمتها المدرسة الظاهرية التى بناها السلطان الظاهر ببين القصرين . وقد استغرق بناء تلك المدرسة عامين (١٢٦٢ — ١٢٦٤) ، حتى اذا ما تم بناؤها احتفل بافتتاحها احتفالا كبيرا وفق ما جرى العرف فى ذلك العصر . ذلك أن السلطان نزل الى المدرسة فى جمع من أمرائه فى حين اجتمع الفقهاء والقضاة والأعيان فى صحن المدرسة حيث مد سماط زاخر بمختلف ألوان الأطعمة من لحوم وطيور فضلا عن الحلوى والفواكه ، فأكل جميع المدعوين ونهبت العامة بقية السماط . وبعد أن خلع السلطان على كل من أسهم فى بناء المدرسة ، عين لها موظفيها من المدرسين والفقهاء والمؤذنين والقراء والفراشين وغيرهم .

وكانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلة القدر ، يخلع السلطان على صاحبها ويكتب له توقيعا من ديوان الانشاء يختلف باختلاف المادة التى يدرسها المدرس ان كانت تفسيرا أو حديثا . ويذكر المقريزى عن المدرسة الظاهرية أن أهل كل مذهب جلسوا فى ايوانهم ؛ وفوض تدريس الحنفية للصدر مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين بن العديم ، وتدريس الشافعية للشيخ تقى الدين محمد بن الحسن بن رزين ... وأنشد جمال الدين أبو الحسين الجزار يومئذ [1] :

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى

ومن يتغالى فى الثواب وفى الثنا

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٠٤ .

لقد ظهرت للظـــاهر الملك همـــة
بها اليوم فى الدارين قـــد بلغ المنى
تجمـــع فيهـــا كل حسن مفرّق
فراقت قلوبا للأنام وأعينـــا
ومذ جاورت قبر الشهيد فنفسه النـ
ـفيسة منهـــا فى سرور وفى هنـــا
وما هى إلا جنـــة الخـــلد أزلفت
له فى غد فاختـــار تعجيلهـــا هنـــا

وقد جرى العرف فى ذلك العصر على أن تلحق بكل مدرسة خزانة كتب يرجع اليها المعلمون والمتعلمون ويستفيدون منهـــا فى البحث والاستقصاء. لذلك جعل السلطان الظـــاهر بيبرس بمدرسته التى شيدها « خزانة كتب جليلة »، وعين لهـــا خازنا — أى أمينا — من العلماء، يجيد ترتيب الكتب وتنظيمها وحفظها وارشاد المطلعين الى مافيها.

ثم ان السلطان بيبرس أراد الحصول على مزيد من الثواب فأنشأ الى جانب مدرسته مكتبا لتعليم الأيتام « وأجـــرى عليهم الخبز فى كل يوم، وكسوة الفصلين وسقاية تعين على الطهارة»(١).

ومن الواضح أن المدرسة ومكتبتهـــا ومكتب الأيتـــام — وهى المؤسسات التعليمية التى أنشأها بيبرس — كانت فى حاجة الى مورد ثابت للانفاق منه على مرافقها وموظفيها فضلا عن طلبتها.

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٢١.

لذلك وقف السلطان بيبرس الأوقاف الواسعة على مدرسته لينصرف الجميع الى أعمالهم فى جو من الاطمئنان وراحة الفكر .

والملحوظ فى عصر المماليك أن النشاط التعليمى لا يمكن فصله عن النشاط الدينى ، لأن التعليم كان مرتبطا الى حد كبير بالعلوم الدينية من حديث وتفسير وفقه ... وبالتالى فان الأساتذة والطلاب فى ذلك العصر كانوا من رجال الدين .

وكان النشاط الدينى فى عصر بيبرس ومن جاء بعده عظيما واسع الأفق بعيد المدى . ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة الا فى ضوء الرغبة فى ظهور السلاطين فى صورة حماة الاسلام وأنصاره وبذلك يكسبون حكمهم صبغة شرعية فى نظر المعاصرين من ناحية، ويعوضون ما أحسوا به من نقص بسبب أصلهم غير الحر من ناحية أخرى . هذا فضلا عن رغبة سلاطين المماليك فى استئناف سياسة الأيوبيين الخاصة باقتلاع جذور المذهب الشيعى من أرض مصر والقضاء على ما تبقى من رواسب شيعية من العصر الفاطمى .

أما عن مظاهر النشاط الدينى فى ذلك العصر فمتعددة ، أهمها احياء الخلافة العباسية فى مصر ، وتنظيم القضاء والعناية باقامة المؤسسات الدينية وتعميرها ، وانتشار التصوف . وفى جميع ألوان هذا النشاط الدينى الذى شهدته مصر فى ذلك العصر ، شارك السلطان الظاهر بيبرس بقسط وافر يسترعى الانتباه . فهو صاحب الفضل فى احياء الخلافة العباسية بمصر بعد سقوطها فى بغداد سنة ١٢٥٨ كما سبق أن أشرنا . ولا يخفى علينا ماترتب على

احياء الخلافة العباسية فى مصر من ازدياد النشـــاط الدينى فى البلاد ، الأمر الذى يعبر عنه السيوطى بقوله « اعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الاسلام فيها، وعلت فيها السنة ، وعفت منها البدعة ، وصارت محـــل سكن العلماء ، ومحط رحال الفضلاء » (١) .

وبيبرس هو صـاحب الفضل فى اصلاح نظام القضاء . وكان الوضع فى مصر منذ زمن الأيوبيين أن يكون قاضى القضاة شافعيا. ولكن السلطان بيبرس استاء من تعنت قاضى القضاة الشـافعى تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز « وتوقفه فى تنفيذ الأحكام وكثرة الشكاوى منه بسبب ذلك » . وقد روى المقريزى كثيرا من الشكاوى التى قدمت فى حق ذلك القاضى الشافعى الى السلطان بيبرس ، وبعض هذه الشكاوى من رسول أمير المدينة النبوية ، وبعضها من الأمراء ، وبعضها من عامة المتقاضين . وكان أن أخذ السلطان بيبرس يناقش قاضى القضاة تاج الدين فى كل شكوى، وعندئذ لمس السلطان من القاضى تشددا وتعنتـا فى كثـير من القضايا . وعندما احتدمت المناقشة بين الأمير أيدغدى والقاضى تاج الدين فى حضرة السلطان بيبرس ، التفت الأمير الى تاج الدين وقال له : « يا قاضى ! مذهب الشافعى لك ، ونولى من كل مذهب قاضيا ! » (٢) . ويبدو أن هذه العبارة علقت بذهن بيبرس ، فلم تكد تمر على ذلك المجلس أيام قليلة ، حتى عين السلطان أربعـة

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩ .

قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، وأباح لهم أن يولوا نوابا عنهم فى أنحاء البلاد « وسائر الأعمال المصرية » . ومع ذلك فان قاضى القضاة الشافعى ظل محتفظا بمكانة ممتازة طوال ذلك العصر . وقد رتب غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى القضاة فى ذلك العصر حسب منزلتهم فوضع الشافعى فى المقدمة ويليه الحنفى ثم المالكى فالحنبلى (١) .

كذلك انفرد قاضى القضاة الشافعى مـدة من الزمن بلبس الطرحة فى المواكب ، ولا يخطب أو يصلى بالسلطان الا هو (٢) .

ومن مظاهر النشاط الدينى فى عهد السلطان بيبرس الاهتمام بانشاء الجوامع وتعميرها . والمعروف أن الجامع الأزهر ظل معطلا من صلاة الجمعة منذ عهد صلاح الدين الأيوبى ، حتى اذا ماولى منصب السلطنة السلطان الظاهر بيبرس عمـل على اصـلاحه وترميمه وعين له الفقهاء والمحدثين والقراء ، وأقيمت به صـلاة الجمعة لأول مرة فى ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) . كما ان الظاهر بيبرس اهتم اهتماما كبيرا ببناء جامع جـديد فى القاهرة — هو الجامع الظاهرى الذى نسب اليه — فاستحضر له الرخام والأخشاب من كافة الجهات ، وخصص لبنـائه عددا كبيرا من المهندسـين والبنائين . وعنـدما استولى على يافا من

---

(١) خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٩٢ .

(٢) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ١٢٧ ، القلقشندى : صبح الاعشى ج ١ ص ٤١٩ ، ج ١١ ص ١٧٤ ، أبو المحاسن : النجـوم ج ٩ ص ٢٦٥ .

الصليبيين وهدم قلعتها — كما سبق أن أشرنا — شحن مركبا من رخامها وأخشابها الى القاهرة ، وأمر بأن يبنى من هذا كله مقصورة الجامع الظاهرى . وهكذا حتى تم بنـــاء الجـامع سنة ١٢٦٩ فعين له بيبرس خطيبا حنفى المذهب ، ووقف عليـه الأوقاف السخية (١) . وقـد جاء جامع بيبرس آية جميـلة فى هندسته وتنظيمه وروعة بنائه ؛ وهو مربع الشكل قوام تصميمه صحن يحيط به أربعة ايوانات أكبرها ايوان القبـلة ، وعقـوده بعضها محمول على أكتاف والبعض الآخر على عمد من الرخام . أما واجهاته الأربع فهى مبنيـة بالحجـر ، فى حين بنيت مبانيه الداخلية بالطوب . وقد زينت أبوابه الثلاثة بزخارف جميلة ، كما شيدت قبة فوق المحراب بايوان القبلة ، وطول ضلعها عشرون مترا . (٢)

وثمة ظاهرة هامة ميزت النشاط الدينى فى عصر ســلاطين المماليك ، هى اشتداد تيار التصوف . ويبدو أن الأخطـار التى ألمت بالعالم الاسلامى فى القرن السابع الهجـرى — على أيدى التتار فى المشرق والصليبيين فى المشرق والمغرب — جعلت كثيرا من المتدينين يرغبون فى التوبة الخالصة الى الله والزهد فى الدنيا والعودة الى سنة السلف الصالح للخلاص من الأوضـاع السيئة التى أمسى فيها المسلمون . وكان أن وفد على مصر فى القـرن السابع الهجرى كثير من مشايخ الصوفية ، مثـل أبى الحسن

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ .
(٢) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٧١ .

الشاذلى وأبى العباس المرسى وأبى القاسم القبارى والسيد أحمد البدوى ... وهكذا شهد عصر بيبرس فى مصر اشتداد حركة دينية قوية صار لها أبلغ الأثر فى الحياتين الدينية والاجتماعية بقية عصر المماليك ، فضلا عن العصر العثمانى .

* * *

الحياة الاقتصادية :

وكذلك شهد عصر السلطان الظاهر بيبرس نشاطا اقتصاديا واسعا فى ميادين التجارة والزراعة والصناعة . ومهما قيل من أن سلاطين المماليك انما حرصوا على تشجيع اقتصاديات البلاد حرصا على مصالح المماليك الخاصة ورغبة منهم فى استغلال موارد مصر الضخمة لبناء ثروات كبيرة ، فان الذى يعنينا هو أن النشاط الاقتصادى فى ذلك العصر ظهرت آثاره واضحة فى الحياة الاجتماعية فى مصر ، فضلا عن أن الثروة الناتجة عن ذلك النشاط عبرت عن نفسها تعبيرا عمليا فيما شيده المماليك من قصور وجوامع ومدارس وخانات وسبل ... وغيرها من المنشآت التى مازالت بقاياها قائمة حتى اليوم تشهد بما وصلت اليه الحضارة فى ذلك العصر من رقى وسمو .

أما فى ميدان التجارة ، فقد شهدت مصر — منذ عصر الظاهر بيبرس بصفة خاصة — نشاطا تجاريا واسعا حتى صارت تمثل الطريق الرئيسى لتجارة الشرق ، والمركز التجارى الكبير الذى يقصده تجار الغرب الأوربى لابتياع ما يلزمهم من بخور وتوابل

وغيرها من محاصيل الشرق . وهنا نشير الى أن غزوات المغول فى أقاليم الشرق الأوسط فى القـرن الثالث عشر ، واحتـلالهم فارس والعراق وآسيا الصغرى ، والعداء بين مغول فارس ومغول القفجاق ... كل ذلك أدى الى تعطيل كثير من طرق التجارة بين الشرق والغرب وبخاصة طريق الخليج ، فبغداد فموانى الشام ، أو طريق فارس فشمال العراق فالبحر الأسـود وموانى آسـيا الصغرى . وهكذا لم يبق ثمة طريق بعيد عن خطر المغول آمن من عبثهم غير طريق البحر الأحمر ، فتحول اليه الجزء الأكبر من تجارة الشرق الأقصى ، وصارت متاجر الشرق تأتى الى عـدن ومنها الى موانى مصر مثل عيذاب والقصـير والقلزم . وبعـد ذلك كانت تنقل محاصيل الشرق اما عن طريق القوافل أو النيل الى دمياط والاسكندرية حيث يحصل عليها التجار الأوربيون ، وبخاصة تجار ايطاليا كالبنادقة والبيازنة والجنوية .

وقد أدرك سلاطين مصر أهمية التجـارة الخارجيـة لهم ولدولتهم فشجعوا التجـار الأوربيين على المجىء الى الموانى المصرية لابتياع ما يلزمهم من محاصـيل الشرق . وهكذا كثر التجـار الأوربيـون فى المدن المصرية — وبخاصـة دميـاط والاسكندرية — ، وصار لكل جالية منهم قنصـل يشرف على شئون أفراد الجالية ومصالحها الاقتصادية [1] .

على أن روح الحروب الصليبية ورجحان كفة الظاهر بيبرس

---

(١) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٤١ .

على كفة الصليبيين بالشام ، جعلت بعض زعماء الحركة الصليبية يفكرون فى ذلك العصر فى فرض حصار اقتصـــادى على مصر وحرمان المماليك من المورد الأول لثروتهم وغناهم .

ولما كان من المتعذر على الصليبيين تنفيذ فكرة الحصار على مصر من ناحية البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، فقد لجأوا الى تنفيذ تلك الفكرة من ناحية البحر المتوسط. وكانت مصر عندئذ تستورد بعض المواد الأساسية اللازمة لصناعة السفن ، مثل الحديد والأخشاب والقار والكبريت .

وقد تواتر فى المراجع الصليبية أن الأمير ادوارد الانجليزى الذى أتى الى الشام فى مقدمة مجموعة صغيرة من الصليبيين سنة ١٢٧١ ، استاء عندما وجد التجـار الأوربيين يمدون دولة الظاهر بيبرس بحاجاتها من المواد السالفة ، فحاول اقناعهم بعدم التعـاون الاقتصـــادى مع الممـاليك وهددهم ان لم يغيروا سياستهم [١] . وفى الوقت نفسه أخذت البابوية بتلك الفكرة ، فأصدر البابا جريجورى العاشر قرارا بابويا سنة ١٢٧٣ يحـرم على التجار الأوربيين التجارة مع المسلمين ، وهدد كل من يخالف هذا القرار بالحرمان . واذا كان جيمس الأول ملك أرغونة قد استجاب لذلك القرار وقطع علاقاته التجارية مع الظاهر بيبرس سنة ١٢٧٤ وأمر فعلا بحظر تصدير الحديد والأخشاب الى مصر، فانه يبدو أن جمهرة التجار الأوربيين — وبخاصة الايطاليين —

---

(١) Grousset ; Hist des Croisades III p.659.

لم يستجيبوا لذلك ، وأدركوا أن التجارة مع مصر تعود عليهم بثروة طائلة لا غنى لهم عنها . وهكذا ظلت تجارة مصر الخارجية فى عهد السلطان الظاهر بيبرس — والعصور التى تلته — تمثل المورد الأول لثروة البلاد .

ولم تكد التجارة الداخلية عندئذ أقل نشاطا من التجـــارة الخارجية ، أذ حفلت القاهرة بالأسواق الزاخرة التى انفرد كل سوق منها بنوع معين من البضائع ، فسوق الشـــماعين اختص ببيع الشـــمع وسوق الدجاجين اشتهر ببيع الدجاج والطيور الداجنة وسوق السلاح اشتهر ببيع القسى والنشاب..وهكذا [1]. وقد تشابهت هذه الأســواق فى كافة المــدن المصرية من حيث نظامها ، فامتازت حوانيتها بصغر حجمها وبوجود مكان فى مقدمة الحانوت يشبه المصطبة يجلس عليه التاجر ومن يتردد عليه من العملاء والزوار . وقد دأبت الحكومة على فرض رقابة شــديدة على التجار لمنعهم من الغش والتلاعب ، فكان المحتسب «لا يمكن ذوى البيوع أن يغبنوا ضعفاء الرعايا أشياءهم ، ولا يفسح لهم أن يرفعوا على الحق أسعارهم ويبخسوا الناس أشياءهم [2] » .

أما عن عناية السلطان الظــاهر بيبرس بالزراعــة فتتضح فى حرصه على توفير الماء لرى الأرض ، الأمر الذى دفعه الى بنـــاء كثير من القناطر والجسور ، « لكثرة ماكان يشرق من الأراضى فى

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٣ ص ١٥٣ وما بعدها .

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١١ ص ٢١٠ — ٢١٣ .

كل سنة ، فانتفعت البلاد بهذه القناطر » [1] . ومن أهم القناطر والجسور التى أنشأها بيبرس تلك القائمة علــى بحر أبى المنجا والتى وصفها المقريزى « بأنها أجل قناطر أرض مصر » ولا تزال بقايا هذه القناطر باقية حتى اليوم وان كانت غير مستعملة بسبب تحويل مجرى الماء . هذا عدا قنطرة منية السيرج وقنطرة القصير وقنطرة خليج الاسكندرية وقنطرة شبرا منت ، وغيرها . وثمة قنطرة مشهورة أنشأها الســـلطان بيبرس على الخليج المصرى ، نسبت اليه فسماها ابن دقماق « القنطــرة الظاهرية » وان كان اسمها الشائع فى المراجع هو « قنطرة السباع » لأنه وضع عليها سباعا من الحجارة تشير الى شعار السلطان بيبرس نفسه [2] ، واستخدمت هذه القناطر أيضا فى الانتقال من جانب الى آخر من جانبى الخليج .

والمعروف أن العناية بالزراعة فى مصر تستلزم تطهير الترع بين حين وآخر مما يتراكم فيها من طمى الفيضان ، وأنه اذا أهمل تطهير الترع تعرضت للانسداد ، مما ينزل أفدح الضرر بالأراضى المزروعة . لذلك اهتم السلطان الظاهر بيبرس بتطهير الترع وحفر الخلجان واصلاحها ، فحفر خليج الاسكندرية « وكان قد ارتدم بالطين » وبحر أشموم طناح « وكان قد عمى » وبحر الصماصم (الصمصام) بالقليوبية وخليج سردوس بالشرقية ، وأصلح بحر

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٦ .

(٢) كان لكل واحد من سلاطين المماليك رنك أو شعار خاص به ، والسبع هو رنك السلطان الظاهر بيبرس .

دمياط ، هذا عدا عدد آخر كبير من الترع حفرها بيبرس ودأب على حفرها حتى يروى أبو المحاسن أنه حفر فى ترعة أبى الفضل وحدها ألف قصبة .

وجدير بالذكر أن اصلاحات بيبرس فى ميدان الزراعة لم تقتصر على الاقليم المصرى ، وانما امتدت الى بلاد الشام حيث أنشأ بيبرس « جسورا كثيرة بالغور والساحل » ، ومنها جسر بقرية دامية بالغور على نهر الشريعة ، وقد وقف عليه بيبرس وقفا لاصلاح مايتهدم منه [1] .

أما عن الصناعة فقد وصلت الى درجة فائقة من الجودة والدقة تشهد بذلك البقايا والآثار التى ترجع الى ذلك العصر والتى تزخر بها دور الآثار فى جميع أرجاء العالم . ولم تقتصر المهارة الفنية للعمال والصناع على ما خلفوه من صناعات دقيقة فى الأسلحة والزجاج والخزف والنسيج والحلى المعدنية وغيرها ؛ وانما ظهرت أيضا فى الفنون الكبرى كالعمارة والتصوير والنحت . وحسبنا ما نلمسه فى جامع السلطان بيبرس بعقوده المحمولة فوق أكتاف وأعمدة من الرخام وأبوابه المزينة بزخارف جميلة وقبته الكبيرة الواقعة فوق المحراب ، لنحكم على مهارة الصناع فى ذلك العصر .. هذا الى روعة النقوش المنحوتة على افريز قناطر أبى المنجا — وهى القناطر التى شيدها السلطان بيبرس سنة ١٢٦٦ كما سبق أن أشرنا — ؛ وتمثل هذه النقوش سباعا متجهة الى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ص ١٩٤ .

الجنوب الشرقى ورءوسها منظورة من الأمام ، ولكل منها شارب وأذنان دقيقتان ومدببتان ، وعينان ملوزتان وذنب مرفوع على ظهره . وتعتبر هذه النقوش بالذات من أروع أمثلة النحت فى عصر المماليك اطلاقا [1] .

أما عن الصناع وأرباب الحرف فى ذلك العصر فكانوا أحسن حالا من الفلاحين ، اذ وجدت لكل حرفة نقـــابة تنظم شئون المشتغلين بهـــا ، وتحدد معاملتهم فيما بينهم ، أو بينهم وبين الجمهـــور . كذلك كان لكل نقـــابة من نقابات الحرف رئيس أو شـــيخ يرأسهم ويفض مشكلاتهم ، ويرجعون اليه فى كل ما يهمهم لا سيما فى الوساطة بينهم وبين الحكومة .

* * *

منشـــآت بيبرس :

أما عن منشآت السلطان الظاهر بيبرس فقـــد قال عنهـــا أبو المحـــاسن « بنى فى أيامـــه بالديار المصرية مالم يبن فى أيام الخلفـــاء المصريين ولا ملوك بنى أيوب من الأبنيـــة والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات » . [2] ولم يكن المؤرخ أبو المحاسن مبالغا فيما ذكره ، لأن السلطان الظاهر بيبرس كان بنـــاء فعلا ، اذ أقام كثـــيرا من المنشـــآت الدينيـــة

(١) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٦٣٨ ـ ٦٣٩ ، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية ص ٢٦٨ ، ٥٠٠ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٠ .

والاجتماعية والعمرانية بوجه عام فى جميع دولتــه الواســعة ؛ وما زال كثير من هذه العمائر قائما حتى اليوم يشهد على عظمة بيبرس وحرصه على الاصلاح والتعمير . ونستطيــع أن نقسم كلامنا عن منشآت بيبرس تقسيما مكانيا اقليميا الى أربعة أقسام: عمائره بالقلعة ، ومنشآته بالقاهرة ، ومنشآته ببقية أنحاء مصر ، وأخيراً منشآته فى الشام والحجاز .

أما عن عمائر بيبرس بقلعة الجبل ، فيذكر المؤرخون أنه عمر فيها دار الذهب ، كما بنى قبة عظيمــــة محمولة على اثنى عشر عمودا من الرخام الملون ، وصور فيها سائر حاشيته وأمرائه على هيئتهم . كذلك عمر السلطان بيبرس بالقلعة طبقتين مطلتين على رحبة الجامع ، وأنشأ بجوار باب القلعة العمومى برج الزاوية ، وهو البرج الذى لا يزال قائما حتى اليــوم فى الزاوية الشمالية الغربية من السور القديم للقلعة . وقد أنشأ بيبرس على هــذا البرج قبة وزخرف سقفها ثم أقام بجواره طباقا للمماليك . وفى رحبة القلعة أنشأ بيبرس دارا كبيرة لولده الملك السعيد (١) .

وكان بيبرس حريصا فى الوقت نفسه على تعمير القـــاهرة وتجميلها ، بوصفها حاضرة ملكه ومركز دولتــه الواســـعة . فبالاضافة الى الجامع والمدرسة اللذين ذكرناهما ، جدد بيبرس جامع الأنوار والجامع الأزهر ، وبنى جامع العافية بالحسينيــة « وأنفق عليه فوق الألف ألف درهم » ، وأنشأ على مقربة منــه

---

(١) ابو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٩٠ ــ ١٩١ .

زاوية الشيخ خضر ، وهو شيخ السلطان بيبرس . كذلك أنشأ بيبرس قبة جميلة عند مقياس الروضة ، وجدد قلعة جزيرة الروضة . هذا كله فضلا عن الحمامات والطواحين والأفران والخانات والأسواق العديدة التى أنشأها وعمرها وجددها بيبرس .

وكان لضواحى القاهرة والجهات القريبة الواقعة خارج أسوارها نصيب كبير من عناية بيبرس أيضا ، فامتدت العمائر من مسجد التبر [1] «الى أسوار القاهرة الى الخليج وأرض الطبّالة ، واتصلت العمائر الى باب المقسم [2] الى اللوق الى البورجى ، ومن الشارع الى الكبش الى تحت القلعة ومشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ... » [3] .

وجدير بالذكر أن بيبرس أنشأ كثيرا من الدور لأمرائه ، ولكنه حرص على أن يجعل هذه الدور بظاهر القاهرة — أى خارج أسوارها — « فانه كان يكره سكنى الأمير بالقاهرة مخافة من حواشيه على الرعية » .

فاذا تركنا القاهرة بقلعتها وضواحيها ، وانتقلنا الى بقية أنحاء الديار المصرية ، فاننا نجد أن بيبرس لم يهملها وأن يده امتدت الى معظم أنحائها بالانشاء والتعمير . من ذلك ما يرويه المقريزى

---

(١) قرب سراى القبة الآن .

(٢) أو باب المقس عند باب البحر ، أو باب الحديد .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٩٦ ــ ١٩٧ .

من أنه بنى بالشرقية قرب العباسة قرية جديدة نسبت اليه فسميت الظاهرية « وعمر بها جامعا » [1] .

وبالاضافة الى الجسور والقناطر التى شيدها بالديار المصرية والتى سبق أن أشرنا اليها ، فان الظاهر بيبرس «أنشأ عدة جوامع بالديار المصرية » ، وجدد عدة قلاع مثل قلعة السويس وقلعة العمودين ببرقة [2] .

وأخيرا فان يد بيبرس امتدت بالتعمير الى كثير من أنحاء الحجاز والشام . من ذلك أنه أتم عمارة الحرم النبوى بالمدينة وعمل منبره ، « وجعل بالضريح النبوى درابزينا ، وذهب سقوفه وجددها وبيض حيطانه ، وجدد البيمارستان (المستشفى) بالمدينة النبوية ، ونقل اليه سائر المعاجين (المراهم) والأكحال والأشربة (الأدوية) ، وبعث اليه طبيبا من الديار المصرية » . وفى الشام رمم بيبرس مقام الخليل عليه السلام وجدد قبته وأصلح أبوابه وميضأته ، كما أصلح ما كان قد تهدم من قبة الصخرة بالقدس وأنشأ بها خانا للسبيل وبنى مسجدا وطاحونا وفرنا وبستانا .

كذلك وسع مشهد جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ووقف عليه وقفا كبيرا . هذا كله عدا الجوامع التى بناها وجددها فى قاقون وغيرها من مدن الشام والتى « يطول الشرح فى ذكرها » ؛

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٦٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٢ .

فضلا عن القلاع والأبراج والخانات والسبل التى شيدها فى أنحاء الشام .

ومن الواضح آن دمشق فازت بنصيب الأسـد من تلك المنشآت ، فجدد شرفات قلعتها ورءوس أبراجها التى كانت قد هدمها المغول ، وبنى بها حماما ، كما جدد مشهد زين العابدين رضى الله عنه بجامع دمشـق ، وأمر بترخيم الحـائط الشمالى وتجديد باب البريد وفرشه بالبلاط . هذا كله عدا القصر الأبلق الذى شيده بيبرس بالميدان فى دمشق ، وما حوله من العمائر [1] .

وهكذا نجـد أن حروب بيبرس الطـويلة ضـد المغول والصليبيين لم تصرفه عن الانشاء والتعمير .

---

(١) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ــ ترجمة بيبرس .

الفصل التاسع

الحياة فى القاهرة على عهد بيبرس

صورة القاهرة

كانت القاهرة فى عصر سلاطين المماليك من أكبر مدن العالم وأكثرها سكانا ؛ وهــو الأمر الذى اعترف به الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر سواء أكانوا أوربيين أم مسلمين . وقد اتصفت القاهرة فى ذلك العصر بكثرة منازلها وضيق طرقاتها واكتظاظها بالمارة والسوقة والدواب . ولم ينقطــع الضجيج من شــوارع القاهرة لكثرة الناس ، اذ انتشر الباعة المتجولون — وبخاصة باعة الطعام — فى الطرقات يصيحون صيــاحا مستمرا ، وطاف الحلاقون بالبيوت ومراياهم معلقــة فى رقابهم ينادون على من يرغب فى الحلاقة . هذا كله بالاضافة الى كثرة الدواب ، والخيول المطهمة ؛ والجمال العديدة تحمل القرب ويطوف بها السـقاءون على المنازل والأسواق لامدادها براتبها اليومى من الماء ؛ والحمير قامت بدور سيارات الأجرة فى عصرنا فاستأجرها الناس فى قضاء حاجاتهم ومطالبهم . وقد أدى ضيق الطرقات وكثرة من فيها من أناس ودواب الى أن شدد المحتسب على أصحاب الدواب بأن

« يشدوا فى أعناق دوابهم الأجراس وصفاقات الحديد والنحاس ليعلو جلبة الدابة اذا عبرت فى السوق ، فينحذر منهـا الضرير والانسان الغافل والصبيان » ... [١]

وقد امتازت القاهرة فى ذلك العصر بكثرة مافيها من مؤسسات اجتماعية ذات أهمية بالغة . ومن هذه المؤسسات ماهو خاص بالمسافرين والتجار مثل الفنادق والخانات والوكالات ، ومنها ماهو عام لأهل المدينة مثل الأسبلة والحمامات وغيرها . وهنا نجد السلطان الظاهر بيبرس يسهم بنصيب وافر فى تشييد هذه المؤسسات ورعايتها وتخصيص الأوقاف للانفاق عليها ، فأنشأ من الخانات والحمامات والأسبلة ماهو معروف ، كما وقف وقفا سمى « وقف الطرحاء » لتغسيل موتى الفقراء ودفنهم . وقد وصف المقريزى هذا الوقف الأخير بأنه « من أكثر الأوقاف نفعا » [٢] .

ثم ان سلاطين مصر اهتموا اهتماما خاصا بتجميل القاهرة وحرصوا على نظافتها ، فأمروا بكنس الشوارع ورشها بالمياه منعا لاثارة الأتربة . وقد ذكر المقريزى أن الباعة كلفوا فى ذلك العصر بكنس الشوارع ورشها ، كما صدرت الأوامر الى أرباب الحوانيت بأن يحتفظوا بأزيار مليئة بالماء لتسهيل اطفاء أى حريق يقع بالمدينة . أما الخزانات والأسربة التى كانت تتجمع

---

(١) ابن الأخوة : معالم القربة ص ٢٤٠ ــ ٢٤١ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٣٨ .

فيها المياه القذرة المنصرفة من البيوت والحمامات ، فقد قام المشاعلية بنزحها وتنظيفها بين حين وآخر مقابل أجر معين .

وقد أدى حرص بيبرس على تجميل القاهرة أن أصدر أمرا سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) بجمع أصحاب العاهات من شوارعها « فجمعوا بخان السبيل ظاهر باب الفتوح من القاهرة ونقلوا الى مدينة الفيوم وأفردت لهم بلدة تغل عليهم ما يكفيهم » [١] .

* * *

وسائل اللهو والتسلية :

أما عن وسائل اللهو والتسلية ، فقد زار مصر فى عصر المماليك رحالة من جزيرة كريت اسمه بيلوتى فقال فيما كتبه عن رحلته ان ماء النيل من خصائصه أن يجعل الناس دائما مرحين فرحين بعيدين عن الهموم والأحزان .

والواقع ان وسائل التسلية والترويح عن النفس تعددت فى عصر المماليك . فمن هذه الوسائل خروج الناس الى الحدائق والمتنزهات والبرك ، مثل الأزبكية وبركة الحبش وبركة الرطلى وغيرها . كذلك اشتهرت جزيرة الروضة بأنها غدت منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس « فرجا ومتنزهات » فقصدها الناس للنزهة والتمتع بطيب هوائها [٢] . ثم ان الناس اهتموا فى هذا

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٥٣ .

(٢) انظر ما كتبه السيوطى تحت عنوان « بلبل الروضة » و « كوكب الروضة » . وهما رسالتان مخطوطتان بدار الكتب المصرية .

العصر اهتماما بالغا باستغـلال النيل والتنعم بمناظره وهوائه ، فزرعوا على شواطئه الحدائق الغناء ، ولجأ بعضهم — وبخاصة أيام الفيضـان صيفا — الى استئجـار القوارب والسفن ، واستصحاب المغانى وجوقات العوالم معهم . وتمتعت بولاق هى الأخرى بشهرة واسعة فى ميدان اللهو فى ذلك العصر فقصـدها الناس وأقاموا فيها الأخصاص المصنوعة من الخوص ، وزرعوا حولها الرياحين وزينوها بالرخام والدهان . وهنـاك اعتاد أن يزدحم المتنزهون من الرجال والنساء ، ويتبعهم عـدد عظيم من الباعة ، فيختلط الناس فى غير كلفة أو حجاب .

كذلك شغف النـاس فى ذلك العصر بسـماع الموسيقى والغناء . ومما جعل للموسيقى والغناء أهمية كبيرة فى ذلك العصر تشجيع السلاطين واغداقهم على المغنين والمغنيات ثم انتقال الأغانى الى الناس عن طريق السماع . وقد ترددت فى مراجع ذلك العصر أسماء كثيرين من المغنين والمغنيات مثل عبد العزيز الحفنى المتوفى سنة ٧١٠ هـ ، وقد وصف بأنه أعجوبة زمانه فى فن الغناء [١] . كذلك أكثر أدباء ذلك العصر من ذكر الغناء والمغنيات فى شعرهم ونثرهم ، ومن ذلك ماقاله أحدهم ، وقد استأذنت عليه مغنية فى الدخول :

أدخلى تدخلى علينـا سرورا

أنت والله نزهـة العشـاق

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيـان المائة الثامنة ج ٢ ص ٣٨٤ .

لا تميلى الى الخروج سريعا

تخرجي عن مكارم الأخلاق !

وقــد فرضت الدولة على المغنين والمغنيــات فى ذلك العصر ضريبة عرفت باسم « ضمــان المغــانى » ، استمرت حتى ألغاها الســلطان شعبان سنة ٧٧٨ هـ [١] . أما الآلات الموسيقية التى عرفت فى عصر الظاهر بيبرس فكثيرة ومتنوعة منهــا « الطبول والزمور والكمنجــة والقــانون والعود والرباب والطنبــورة والساجات والرق والنقارات » [٢]

ومن وسائل التسلية التى شاعت فى القــاهرة على عصر السلطان بيبرس خيال الظل . واذا كان الناس فى مصر فى أوائل القرن العشرين قد اعتبروا خيــال الظــل تسلية شعبية فانه فى العصور الوسطى كان التسلية العامة المفضلة لجميع طبقــات المجتمع . فالسلطان صلاح الدين الأيوبى شغف وقت راحتــه بحضور تمثيليات خيال الظل وصحبته وزيره القاضى الفاضل[٣]. واستمر خيال الظــل طوال العصرين الأيوبى والمماليكى يمثــل وسيلة من أهم وسائل التسلية فى مصر ، حتى فتح السلطان سليم العثمانى مصر ، وعندئذ حرص على أن يصطحب معه عند عودته الى القسطنطينية بعض المخايلين « حتى يتفرج ابنى على ذلك » ! وشاءت الظروف أن يقترن عصر السلطان الظــاهر بيبرس باسم

(١) العينى : عقد الجمان سنة ٧٧٨ هـ .

(٢) سيرة الظاهر بيبرس ج ٤٩ ص ٨ .

(٣) Paul Kahle : The Arabic Shadow Play in Egypt. P.P. 31-34.

أكبر شخصية أسهمت فى تأليف تمثيليات خيال الظل ، وهو محمد بن دانيال الموصلى المتوفى سنة ٧١٠ هـ . وقد عرفت تمثيليات خيال الظل باسم البابات ومفردها بابه . أما طريقة عرض هذه التمثيليات فتتلخص فى عمل نماذج وأشكال من الجلد والورق المقوى على شكل عرائس وأشخاص ، وتوضع خلف ستارة بيضاء ومن خلفها مصباح بحيث ينعكس ظل تلك النماذج على الستارة ليراها النظارة من الجهة الأخرى . وفى الوقت نفسه يختفى مقدم التمثيلية خلف الستارة بحيث لا يظهر ظله ، وتحرك النماذج بعصا وتردد العبارات التى تنطبق على حركة النماذج .

كذلك تلهى الناس فى ذلك العصر بعدة ألعاب اتخذت طابع المقامرة ، مثل تطيير الحمام والمناطحة بالكباش والمناقرة بالديوك ، فيراهن الشخص على هذا الطير أو ذاك الكبش أو الديك ، فاذا فاز كسب الرهان . هذا كله عدا ألعاب البهلوانات والحواة التى تسلى بها الناس ، والدبابة الذين يلعبون بالدببة والقرّادة الذين يلعبون بالقرود ، مما لا يزال بعضه باقيا فى مجتمعنا الحديث [١] .

وأما الملاهى الهادئة فأهمها الشطرنج . ويفهم من المراجع المعاصرة أن لعبة الشطرنج ظلت ذات شأن كبير فى عصر المماليك حتى نسب بعض الأشخاص اليها ، كما ألفت فيها عدة رسائل [٢] .

---

(١) سيرة الظاهر بيبرس ج ٩ ص ٤١ .

(٢) انظر ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٢٥٣ ترجمة أحمد ابن محمد الشطرنجى ويوجد بدار الكتب المصرية عدة رسائل مخطوطة فى الشطرنج كتبت فى عصر المماليك وبعضها لايعرف مؤلفوها .

الاحتفال بالأعيـــاد :

وقد بالغ الناس فى عصر المماليك فى الاحتفـــال بالأعيـــاد والمواسم ، واحيـــائها احيـــاء صـــاخبا يشترك فيه الحـــكام والمحكومون . وقل أن يمر شهر من شهور السنة فى ذلك العصر دون أن تشهد القاهرة احتفالا دينيا أو قوميـــا أو سلطانيا . ففى غرة المحرم يحتفل الناس بعيد رأس السنة الهجـــرية ، فيذهب الخليفة والقضاة الى القلعة لتهنئة السلطان بالعام الجديد . وفى اليوم العاشر من المحرم يحتفل بيوم عاشوراء ، وهو من المواسم الرئيسية التى بالغ الفاطميون فى احيائها واستمرت أهميتها باقية حتى عصر المماليك . وقد تمسك الناس ببعض تقاليد خاصة فى ذلك الموسم أهمها طبخ الحبوب وزيارة القبور وشراء البخور .

أما المولد النبوى فى شهر ربيع الأول فكانت له أهمية خاصة تتناسب مع جلالة ذكراه ، فكان السلاطين يشتركون مـــع عامة الشعب فى احياء ذلك العيد والاحتفال به احتفالا يفوق الوصف من حيث العظمة والفخامة ، فيكثر توزيع الصدقات ، وتقـــام الولائم فى البيوت حيث يقـــوم المقرئون بتلاوة القرآن ومولده الكريم .

وفى النصف الأخير من شهر رجب تحتفـــل القـــاهرة ومصر بدوران المحمل . وكان الاحتفال بدوران المحمل يحدث مرتين فى السنة الأولى فى شهر رجب والثانية فى شهر شوال . أما الدورة الأولى التى أطلق عليها « دوران المحمـــــل الرجبى » فأول من

استحدثها فى مصر هو السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥ هـ [١] .
وقد قيل ان الغرض من طواف المحمل فى ذلك الوقت المبكر من السنة هو اعلام الناس أن الطـريق من مصر الى الحجاز آمن ، وأن من شـــاء الحج فلا يتأخر فى الاستعداد ولا يتخوف من الطـريق [٢] ، وبذلك « تهيج العزمات وتبعث الأشواق وتتحرك البواعث فيأخذ من يشاء فى التأهب للحج » [٣] . وكان الاحتفال بدوران المحمـــل من الاحتفـــالات التى يترقبها الناس فيزينون الحوانيت والدور ويخرجون للفرجة على موكب المحمـــل وهو يتهادى فى شوارع القاهرة . ولا يكون دوران المحمل غالبا الا يوم اثنين أو خميس [٤] .

أما شهر رمضان فله مقامه الذى يستوجب المبالغة فى احيائه فى كل زمن وبلد اسلامى . وكانت احتفالات رمضان تبدأ فى عصر المماليك برؤية الهلال من موضع مرتفع خارج القاهرة ، فاذا ثبتت رؤيته ، عاد الموكب بعد صلاة المغرب وبأيديهم الشموع والمشاعل والفوانيس ، فيكون ذلك دليلا على ثبوت رؤية الهلال [٥] . وسرعان

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٨ ، على مبـــارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٢٩ .
(٢) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٤٥٠ (مخطوط) .
(٣) رحلة ابن بطوطة : ج ١ ص ٩٣ .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٧ .
(٥) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٢ هـ (مخطـوط) ، بيبرس : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٨٠ ، أبو المحـــاسن : النجوم ج ٧ ص ١٨١ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٣٩ .

ما تتضاعف الأنوار فى الطرقات والمساجد والبيوت ، وتظل على ذلك طيلة رمضان .

وقد انتهز السلاطين فرصة ذلك الشهر المبارك للتوسع فى أعمال البر والاحسان ، فأعدوا مطابخ لاطعام المساكين والمعدمين فى شهر رمضان وتوزيع الصدقات عليهم . وقد بلغ عدد المطعَمين فى هذه المطابخ على أيام السلطان الظاهر بيبرس خمسة آلاف نفس فى كل يوم من أيام شهر رمضان . كذلك يذكر المقريزى أن السلطان الظاهر بيبرس « كان يصرف فى كل ليلة من ليالى رمضان جملة كبيرة من الخبز واللحم المطبوخ ، وجرى أيضا على عادته فى عتق ثلاثين نسمة على عادة الملوك الماضين » . ويفهم من هذه الاشارة الأخيرة أن عتق هذا العدد من الرقيق فى شهر رمضان كان عادة سنوية منظمة فى دولة المماليك (١) . أما عامة الناس ، فكانوا يجتمعون طوال ليالى رمضان فى الجوامع والمساجد لقراءة صحيح البخارى أو صحيح مسلم ، فضلا عن الذكر والصلاة .

وبعد ذلك يحل عيد الفطر ثم عيد الأضحى ، وموعد الأول غرة شوال وموعد الثانى شهر ذى الحجة ، فيستعد الناس للعيد الأول بعمل الكعك والحلوى وللعيد الثانى باعداد الأضاحى . وفى صباح كل عيد منهما يجتمع أهالى كل حىّ أمام منزل الامام الذى سيصلى بهم صلاة العيد ويزفونه حتى المسجد وبأيديهم

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥١٣ .

القناديل وهم يكبرون طوال الطريق . ولا يلبث النـاس بعـد صلاة العيد أن ينتشروا فى مواطن الأنس وأهمها القرافة والنيل . ولم تكن القرافة فى ذلك العصر مجرد مكان لدفن الموتى ، وانما كانت مدينة صغيرة بها جميع مرافق الحيـاة الضرورية ، حتى وصفها البلوى المغربى بأنها« بلدة كبيرة قائمة بنفسـها مستقلة بأسواقها ومساجدها ... » [1] . واعتبر النـاس عندئذ القرافة مكانا للهو والتفريج عن النفس ، فخرجوا اليها فى أيام المواسم والأعياد ومعهم الريحان والزهور ، وصحبتهم أولادهم ونساؤهم فيكثر الغناء والرقص ويحدث الفساد باختلاط النساء بالرجال . وقد عبر المقريزى عن القرافات فى عصر المماليك فقال انها « معظم مجتمعات أهل مصر وأشهر متنزهاتهم .. » [2] .

وكان الاحتفال رسميا بعيدى الفطر والأضحى فكان الأمراء وكبار رجال الدولة يصعدون الى القلعة ليلة العيد للتهنئة . وفى الصباح كان السلطان يركب فى موكب حافل لصلاة العيد ، ويروى المقريزى فى حوادث سنة ٦٥٩ هـ أن السلطان بيبرس استصحب معه الخليفة فى موكبه « وصليا صلاة العيد » [3] .

وبالاضافة الى الأعياد الدينية ، اعتادت القاهرة أن تحتفل بكثير من المناسبات ذات الصبغة الوطنية ، مثل الاحتفال بوفاء النيل أو قيام سلطان جديد فى الحكم أو عودة السلطان ظافرا من

(١) رحلة البلوى المغربى ص ٥٩ ب ـ ٦٠ أ (مخطوط) .
(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣١٩ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٥٩ .

الحرب . أما عن الاحتفال بوفاء النيل وكسر الخليج فكان يشارك فيه جميع الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، فاذا وفى النيل ستة عشر ذراعا نودى بذلك فى شوارع مصر والقاهرة فيبتهج الناس ويعبرون عن سرورهم باضاءة الشموع والقناديل واستئجار المراكب فى النيل ، فضلا عن تلاوة القرآن عند مقياس الروضة[1]. وفى اليوم التالى لوفاء النيل يحتفل بكسر الخليج ، وكانت العادة الغالبة فى عصر المماليك أن يقوم ابن السلطان بكسر الخليج ، ولكن المقريزى ذكر نصا يستفاد منه أن السلطان الظاهر بيبرس كان يقوم بذلك العمل بنفسه [2] . فاذا ركب السلطان لكسر الخليج فانه يتجه أولا الى مقياس الروضة حيث يمد سماط عامر بألوان الطعام والحلوى والفواكه ، حتى اذا فرغ الكبراء من الطعام ، فانه يسمح للعامة « باختطاف » ما تبقى من الأطعمة . ثم يذاب زعفران فى اناء به ماء ، ويناول السلطان الاناء لصاحب المقياس ، فيسبح به حتى يأتى عمود المقياس فيخلّقه بالزعفران . وفى ذلك الوقت تكون حراقة السلطان — أى سفينته — قد زينت بأنواع الزينة ، وكذلك حراريق الأمراء ، فيركب السلطان حراقته فى موكب كبير من السفن حتى يدخل فم الخليج وعندئذ

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٢٩٧ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١١٤ .

(٢) ذكر المقريزى فى حوادث سنة ٧٨٥ هـ أنه « لم يعهد بعد الظاهر بيبرس ملك ركب حتى خلق المقياس وفتح الخليج سوى الظاهر برقوق » . السلوك ج ٣ ص ٤٨ (مخطوط) .

بقطع السد بحضوره [1] . وقد حضر هذه العملية أحد الرحالة الأجانب فى عصر المماليك فقال ان كسر الخليج تم أمامه بمعول من الذهب الخالص .

وأما عن الاحتفال بتولية سلطان جديد فلدينا صورة طيبة عنه فى عهد الظاهر بيبرس عندما احتفل بسلطنة ولده الملك السعيد سنة ٦٦٢ هـ ، اذ تروى المراجع كيف زينت القاهرة لتلك المناسبة أحسن زينة واهتم الأمراء بنصب القباب ، وهى أقواس النصر ؛ وسار الأمير يتهادى فى موكبه وقد فرشت الثياب الأطلس تحت فرسه حتى عاد الى القلعة [2] .

وكان المفروض فى عصر المماليك أن تحتفل القاهرة احتفالا صاخبا عند عودة أحد السلاطين من بلاد الشام منتصرا على الصليبيين أو المغول . ولكننا نجد هذا النوع من الاحتفالات محدودا فى عهد السلطان بيبرس بسبب حرصه على العودة خفية أو متنكرا دون أن يشعر به الناس . ويستفاد من المراجع أن بيبرس بعد أن فتح أنطاكية سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م) عاد الى القاهرة فى هدوء « وحمل عن الناس كلفة الزينة » [3] .

وخلاصة القول أن القاهرة شهدت فى ذلك العصر كثيرا من الأعياد ومزيدا من الاحتفالات ، وأن هذه الأعياد والاحتفالات كانت تمثل جانبا مشرقا مرحا فى حياة القاهرة وأهلها .

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٧ ــ ٤٨ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥١٦ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٧١ .

نشـــاط المرأة :

وما دمنا بصدد اعطاء القارىء صورة عن الحياة فى القاهرة على عصر بيبرس ، فان هذه الصورة لا تكتمل الا بايضاح دور المرأة ونشاطها فى ذلك العصر . والواقع أن المرأة قامت عندئذ بدور بارز نشيط فى حياة المدينة ، دور أعظم بكثير مما يتصوره البعض . ففى هذا المجتمع حظيت المرأة بقسط وافر من الاحترام ، ونظر المماليك الى نسائهم نظرة مليئة بالاجلال والتقدير ، فخصصوا لهن الألقاب مثل خوند وخاتون ، كما أضفوا عليهن فى مكاتباتهم مختلف عبارات الاحترام والتبجيـــل ، مثلما يبدو بوضـــوح فى مكاتبات السلاطين لبناتهم وزوجاتهم وأخواتهم [1] . ولا أدل على مكانة نســـاء السلاطين فى ذلك العصر من الدور الذى قامت به شجر الدر عقب وفاة زوجها الصالح نجم الدين أيوب كما سبق أن أشرنا . كذلك حدث سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٨ م) أن شب خلاف بين الملك السعيد بن الظاهر بيبرس وأمرائه ، فبعث الملك السعيد أمه لمفاوضة الأمراء فى الصلح ، وعندئذ استقبلها الأمراء بكل احترام واجلال ، واشترطوا عليها شروطا كثيرة التزمت بها لهم ، ثم عادت الى ولدها لتخبره بنتيجة وساطتها [2] . وقد اعتاد بعض السلاطين فى عصر المماليك أن يستصحبوا حريمهم فى نزهات قصيرة الى بر الجيزة وغيره من المواضع القريبة ، وعندئذ كان

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٧ ص ١٦٦ ، خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك ص ١٢١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧ .

يخرج حريم السلطان على الخيول فى محفات مغشاة بالحرير الملون ، ويقود خيولهن بعض كبار الأمراء ويتبعهن أحمال عديدة من المحابر المغشاة بالحرير ، ويحيط بهن سائر الأمراء والمماليك والخدم .

ولم يكن عامة الناس أقل احتراما لنسائهم من المماليك . وخير ما يشير الى احترام عامة الشعب المصرى للمرأة فى ذلك العصر ، تلك الألقاب التى أطلقها الناس على نسائهم وبناتهم ، مثل ست الخلق ، وست الحكام ، وست الناس ، وست الكل .. وذلك من باب « الفخر والتزكية والثناء والتعظيم » . فاذا خرجت احدى النساء الى الطريق وكان زوجها مقتدرا فانه يحضر لها حمارا يقوده مكارى ويتبعها خادم [1] .

وبفضل هذه المكانة الطيبة التى تمتعت بها المرأة عند الحكام والمحكومين فى عصر المماليك ، استطاعت المرأة أن تقوم بدور ملحوظ فى الحياة العامة . ذلك أن المرأة فى ذلك العصر تمكنت من المشاركة فى الحياتين العلمية والدينية ، حتى ان التاريخ يسجل أسماء كثيرات اشتغلن بالنحو ونظمن الشعر وتخصصن فى الفقه والحديث [2] .

ثم ان نشاط النساء فى شوارع القاهرة وأسواقها ومتنزهاتها كان عظيما فى ذلك العصر ، فكانت المرأة تباشر معظم أمور الشراء

---

(١) سيرة الظاهر بيبرس ج ٧ ص ٢٦ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٩٥ ، العينى : عقد الجمان ؛ حوادث سنة ٧١٦ هـ (مخطوط) .

من الأسواق ، بل صار من المألوف أن تشترى المرأة لزوجها ما يحتاج اليه لنفسه من بعض الملابس . فاذا لم يكن لهن حاجة من السوق فانهن يذهبن الى الحمامات العامة الخاصة بالنساء ، حيث يأنسن ببعض ويقضين الساعات يتناقلن أخبار البيوت والناس . وكثيرا ما خرجت النساء الى القرافات والبرك وشاطىء النيل وغيرها من أماكن اللهو والفرجة ؛ الأمر الذى أثار رجال الدين ، فنادوا بمنع النساء من الخروج على ذلك الوجه .

ولم تضن المرأة على نفسها فى ذلك العصر بالزينة والملبس الفاخر . ولكن الأمر الذى يسترعى النظر هو أن النساء فى عهد السلطان بيبرس عمدن أحيانا الى تقليد الرجال فلبسن الطواقى وتعممن بالعمائم حتى اضطر السلطان الظاهر بيبرس الى أن يصدر أمرا سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) « أن امرأة لا تتعمم بعمامة ولا تتزيا بزى الرجال ، ومن فعلت ذلك بعد ثلاثة أيام سلبت ما عليها من الكسوة ! »[١] . وقد حاول المقريزى أن يدافع عن المرأة ويلتمس للنساء العذر فى ذلك ، فقال ان الضرورة هى التى فرضت عليهن محاكاة الرجال فى لبس الطواقى السابقة بسبب ما نزل بالناس من فقر وفاقة ، فتعذر على نساء عصره محاكاة الأوائل فى لبس الشاشات الفاخرة . ولكن هذا التبرير لا يتفق مع ما ذكره المقريزى نفسه من أن هؤلاء النسوة اللائى لبسن الطواقى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٠٣ ، تاريخ ابن الفرات ج ١١ ص ٣٧ .

اعتدن أن يزخرفنها بالذهب والحرير وبالغن فى ذلك ! هذا كله عدا « الأخفاف المثمنة » التى اعتـــادت النســـاء أن يلبسنها فى أقدامهن [1] .

* * *

الأزمات الاقتصـــادية :

هكذا عاش أهل القاهرة فى عصر المماليك ، وألفوا الحـــكم الجديد والنظام الجديد الذى أتى به المماليك ، دون أن يفسد شىء حياتهم العادية ، الا أن تكون فتنة يقوم بها بعض الأمراء ضد السلطان الحاكم لاغتصاب الحكم ، أو نقص خطير فى فيضان النيل يعرض حياتهم للخطر . وفى هاتين الحالتين كانت النتيجة المباشرة ارتباك الحياة الاقتصادية وزعزعة الحالة فى الأسواق ، وما يترتب على هذا وذاك من ارتفاع الأسعار وانتشار الجوع بين الناس .

وقد أفاضت المراجع فى أخبار أزمة اقتصـــادية ألمت بمصر سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣ — ١٢٦٤ م) على عهد السلطان الظاهر بيبرس عندما ارتفعت الأسعار حتى بلغ ثمن اردب القمح مائة درهم والشعير سبعين درهما ، فاشتد الحال بالناس حتى أكلوا ورق اللفت والكرنب ونحوهما ، بل خرجوا من القــاهرة الى الريف « فأكلوا عروق الفول الأخضر » .

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٣ ص ١٦٩ ، ج ٤ ص ١٢٧ .

وقد لجأ السلطان بيبرس فى مواجهة تلك الأزمة الى ما تلجأ اليه أيةحكومة تتعرض للموقف نفسه ؛ فأمر بتسعير الغلال منعا للاستغلال والتلاعب بالأسعار . ولكن ترتب على ذلك الأمر أن أخفى التجار ما لديهم من غلال « فاشتد الحال وعدم الخبز » . وهنا اضطر بيبرس الى ابطال التسعير ، ولجأ الى حل آخر للتخفيف من حدة الأزمة فكتب الى الأهراء السلطانية — وهى مخازن الغلال التى كانت تخزن بها الغلال الخاصة بالسلطان احتياطا للطوارىء — يأمرها ببيع خمسمائة أردب كل يوم لضعفاء الناس . ويبدو أن بعض الأفراد اتجهوا الى شراء أكثر من حاجتهم لتخزينه ، كما هو الحال دائما فى أوقات الشدة ونقص الأقوات ؛ ولذلك أمر بيبرس بأن « يكون البيع من ويبتين الى ما دون ذلك حتى لا يشترى من يخزن » .

أما المعدمون الذين كانوا لا يستطيعون الشراء فقد أمر السلطان بيبرس بحصرهم لمساعدتهم ، فبلغوا بضعة آلاف ، وعندئذ قال السلطان : « والله لو كانت عندى غلة تكفى هذا العالم لفرقتها ! » . وكان أن فرق بيبرس هؤلاء المعدمين على أمرائه ورجال دولته والتجار بحيث يتكفل كل منهم باطعام عدد معين الى أن تنكشف تلك الغمة . ويروى المقريزى أن السلطان بيبرس قال للأمير صارم الدين المسعودى والى القاهرة : « خذ مائة فقير أطعمهم لله» . فقال الأمير «قد فعلت ذلك وأخذتهم دائما» . فقال

السلطان « ذلك فعلته ابتداء من نفسك ، وهـــذه المائة خذها لأجلى ! » فأخذ الأمير مائة مسكين أخرى . وهكذا أمكن مواجهة الأزمة بفضل تلك الروح الطيبة ، حتى ظهر المحصـــول الجديد فانخفضت الأسعار ، وعادت الأمور الى مجاريها الطبيعية [1] .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٠٦ ــ ٥٠٨ .

الفصل العاشر

شخصية بيبرس وحياته

اخلاق بيبرس :

وصف المؤرخ المقريزى السلطان الظاهر بيبرس ، فقال انه كان « طويل القامة ، أسمر اللون ، فى عينيه زرقة وباحدى عينيه نقطة صغيرة ، صوته جهوريا » [1] .

أما عن سماته الخلقية فقد أثنت جميع المراجع على شجاعته ، وان كانت شجاعته هذه جاءت مشوبة بنوع من العنف والقسوة لم يستطع المؤرخون اغفالها . فالمقريزى يقول عنه « وكان شجاعا عسوفا عجولا » . والذهبى يصفه بأنه « كان خليقا بالملك لولا ما كان فيه من الظلم » .

والواقع ان شجاعة الظاهر بيبرس كانت صفته البارزة المميزة ، وهى الصفة التى جعلت المعاصرين يعجبون به وبشخصيته ويجعلون منه بطلا يتناقلون سيرته ويرددونها ويتحدثون بها دائما دون ملل أو سأم . وزاد من وقع شجاعة بيبرس فى نفوس المعاصرين أنها

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٣٧ .

ظهرت فى وقت كان المسلمون أشد الناس حاجة الى زعيم شجاع يستطيع مواجهة خطر الصليبيين من ناحية وخطر المغول من ناحية أخرى . ولعل نجاح بيبرس فى مواجهة هذين الخطرين والتغلب عليهما جميعا هو العامل الرئيسى الذى حرك اعجاب المعاصرين به وغفرانهم ما ظهر فى خلقه من مثالب . فالمؤرخ أبو المحاسن يصف بيبرس بأنه « كان رحمه الله ملكا شجاعا ، مقداما غازيا ، مجاهدا مرابطا ، خليقا بالملك ، خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفسه » . والذهبى يقول عنه « والله يرحمه ويغفر له ، فان له أياما بيضا فى الاسلام ومواقف مشهورة وفتوحات معددة » [1] ..

ولكن يلاحظ أنه اذا كانت أجل صفات بيبرس هى شجاعته النادرة التى خلدت اسمه فى التاريخ، فانه حرص دائما على ألا يشاركه أحد فى هذه الصفة ، حتى وصفه بعض المؤرخين بأنه « كان عنده حسد شديد لمن يوصف بالشجاعة » [2] . وقد دفعه هذا الشعور الى العمل على قتل الملك القاهر ابن المعظم عيسى الأيوبى الذى ساعده فى حربه ضد سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، وذلك عندما أثنى الناس على شجاعة الملك القاهر فى تلك الحرب .

كذلك اتصف بيبرس بحبه للاحسان وعمل البر ، حتى قال عنه المقريزى انه كان يطعم فى كل ليلة من ليالى رمضان خمسة آلاف نفس ، ويكسو فى كل سنة ستمائة كسوة ، هذا فضلا عن

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٧٧ ــ ١٧٨ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٧٨ .

الوقف الذى وقفه لدفن الفقراء كما سبق أن أشرنا [١] . ويضيف المؤرخ أبو المحاسن الى ذلك أن بيبرس كان يتصدق فى كل سنة بعشرة آلاف اردب قمح على الفقراء والمساكين وأرباب الزوايا ، وأنه رتب لأيتام الأجناد (أبناء الشهداء) ما يكفى لمطالبهم فى الحياة على الرغم من كثرتهم ، كما وقف وقفا ليشترى به خبز ويفرق فى فقراء المسلمين [٢] .

ويروى أبو المحاسن قصة عن عفة بيبرس وشرف نفسه هى أن الأشرف صاحب حمص كتب اليه يستأذنه فى الحج ، وضمن كتابه شهادة عليه أن جميع ما يملكه انتقل عنه الى السلطان الظاهر . ولكن بيبرس غضب لذلك ولم يأذن له فى الحج ، وصادف أن مات الأشرف بعد قليل فلم يتعرض بيبرس لتركته ومكن ورثته من ممتلكاته .

على أن هذه السمات الكريمة انتقص من أثرها جنوح بيبرس فى بعض الأحيان نحو الظلم . واذا كان المؤرخ أبو المحاسن قد تحاشى الاشارة الى مثالب بيبرس ، فان المقريزى تعرض لها فى صراحة فتحدث عن مكارمه وبره ثم أعقب ذلك مباشرة بقوله : « الا أنه كان كثير المصادرات للدواوين ، كثير الجباية للأموال من الرعية » . ومن القصص التى رواها المقريزى عما حل بالرعية أيام الظاهر بيبرس أن ابن حنا — وزير بيبرس — « صادر أرباب الأموال حتى هلك كثير منهم تحت العقوبة » . هذا الى أن بيبرس

(١) أبو المحاسن : النجوم : النجوم ج ٧ ص ١٨٠ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم : النجوم ج ٧ ص ١٨٠ .

عندما خرج فى حملته ضد سلاجقة الروم « كلّف أهل دمشق جباية مال لاقامة الخيل ، وفرض عليهم ألف ألف درهم تجبى من المدينة ومن الضياع » (١) .

وهنالك اشـــارات فى المراجع المعاصرة عن أن بيبرس اتصف بالعنف وتعاطى الخمر أحيانا ولكن معاصريه لم يهتموا بذلك كثيرا اهتمامهم بأن يجدوا فيه صورة حية لبطل شجاع لا يخاف الموت ولا ترهبه قوة الأعداء .

وقد جاءت سيرة الظاهر بيبرس فى الأدب الشعبى لتصور ذلك السلطان فى الصورة التى أحب الشعب العربى أن يراه عليها ، فجعلت منه البطل المخلص الذى « ينتظره الناس بصبر نافذ ، فيرفع عن كواهلهم الظلم ، ويرد عنهم غاشية العدو ، ويوزع الأمر بينهم بالقسط » (٢) .

* * *

حياة بيبرس الخاصة :

أما عن حياة السلطان الظاهر بيبرس الخاصة ، فكان شأنه شأن كافة سلاطين مصر منذ أيام بنى أيوب — يقيم فى قلعة الجبل ، وهى دار الملك ومركز حكومة البلاد . وقد وصف المقريزى تلك القلعة فقال ان أسوارها العالية كانت تضم داخلها ديارا وقصورا

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٤٠ .

(٢) عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس فى القصص الشـــعبى ص ١٩ .

عديدة وحمامات وأحواشا ، وطباقا — أى منازل — للمماليك السلطانية تتسع لاثنى عشر ألف مملوك ، فضلا عن دار الوزارة التى اشتملت على قاعة الانشاء وديوان الجيش وبيت المال وخزانة الخاص (١) ..

وقد سارت الحياة فى القلعة فى ذلك العصر وفق قواعد ونظم ثابتة تعتبر من رسوم الملك فى العصور الوسطى ، مثل دق الكوسات — وهى صنجات من نحاس — عند أبوابها مرتين كل ليلة ، والزفة بالطبلخاناة وهى طبول متعددة معها أبواق وزمر تدق كل صباح عند فتح أبواب القلعة وبعد صلاة المغرب عند اغلاق أبوابها . وجرت العادة أن يحفظ السلطان عنده مفاتيح أبواب القلعة فيحضرها اليه المتولون على الأبواب كل مساء ويتسلمونها منه فى الصباح .

وجرت العادة أن يطلق اسم البيوت السلطانية على المرافق الخاصة بمطالب السلطان وحاجاته ، ومن هذه البيوت الشرابخاناة — أى بيت الشراب — ويحوى مختلف الأشربة والأدوية التى يحتاج اليها السلطان ؛ والطشت خاناه ويحوى مختلف أنواع الطشوت والأباريق والأوانى اللازمة لغسل الأيدى والوضوء فضلا عن أدوات الاستحمام ؛ والفراش خاناه وفيه أنواع البسط والخيام والفرش ونحوها ؛ والسلاح خاناه الذى احتوى على

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٣ ص ٣٣٢ — ٣٣٣ .

جميع أنواع الأسلحة الخاصة بالسلطان من قسى وسيوف ورماح ونشاب وغيرها .. [1]

ومن أهم البيوت السلطانية الحوائج خاناه ، التى خصصت لها ميزانيــة تحت يد الوزير يصرف منهـا عـلى المطبخ السلطانى وما يحتاجه من لحم وتوابل وخضر وحلوى وبخــور .. ويكفى أن نعرف للوقوف على ضخامة هذه الادارة أن عدد الدجاج الذى ذبح فى المطبخ السلطانى فى بعض الأيام بلغ سبعمائة طائر كما بلغ مقدار اللحم يوميا فى مطبخ الظاهر بيبرس عشرة آلاف رطل لحم ، وأن قيمة التوابل التى كانت تستهلك فى ذلك المطبخ بلغت عشرين ألف درهم كل يوم ! [2] .

وهكذا امتازت حياة سلاطين المماليك الخاصة بالبذخ والترف . ففى المآكل كانت تمد الأسمطة السلطانية عدة مرات فى النهار ، ففى أول النهار يمد سماط لا يأكل منه السلطان ، ثم يمد سماط ثان بعد ذلك قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل ويسمى الخاص ، ثم سماط ثالث يكون منه مأكول السلطان . وكذلك فى آخر النهار تمد ثلاثة أسمطة يأكل السلطان من آخرها ، وبعد الطعام توزع المشروبات المبردة المعمولة من السكر والمطيبة بماء الورد عـلى الحاضرين . وتولى الاشراف على هذه الأسمطة الأمير الجاشنكير ، ومهمته أن يأكل من كل طعام قبل السلطان خوفا من أن يدس عليه

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ومابعدها ، خليــل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٩٧ وما بعدها .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٨ .

السم فى أكله أو شربه (١) . وهذا مثل آخر على روح الشك وعدم الثقة التى سيطرت على مجتمع المماليك .

وفى الملبس أمعن السلطان فى لبس الفاخر من الثياب بل ان سلاطين المماليك اعتادوا أن يبدلوا ملابسهم ثلاث مرات فى اليوم الواحد ، ومع ذلك فقد حكى بعض الرحالة الذين زاروا مصر فى ذلك العصر أن الرداء الذى يخلعه سلطان المماليك كان لا يلبسه مرة ثانية مطلقا ، وانما توضع الملابس المخلوعة فى مكان خاص حتى ينعم بها على أمرائه وخاصته (٢) .

فاذا نام السلطان بيبرس ظل حوله عددا من أمرائه ومماليكه للسهر على حراسته ، فيقسمون الليل بينهم كلما انقضت نوبة فئة أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلونهم . والمعروف أن النوبات التى تولت حراسة شخص السلطان ليلا ونهارا عددها خمس ، ويكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح . ومن الطريف أن نشير الى أن أرباب كل نوبة كانوا يزودون عادة بأطباق مليئة بألوان « المطجنات والبوارد والقشطة والجبن والموز .. » حتى يتشاغلوا فى السهر حول السلطان بالمأكول والمشروب فلا يغلب عليهم النعاس ! (٣) .

أما الحريم السلطانى — وهو المسمى الآدر الشريفة —

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٣ ص ٣٤٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٠ ، ٤٦٩ .

(٢) Dopp : Le Caire Vu Par les Voyageurs Occidentaux p. 148.

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٣ ص ٣٤٢ .

فاحتوى على عدة قاعات تحيط بها البساتين والأشجار والطيور والحيوانات المختلفة الجميلة . وقد جرت العادة فى عصر المماليك بأن تكون لكل سلطان أربع زوجات تخصص لكل واحدة منهن قاعة خاصة بها ؛ فالقاعة الأولى تقيم بها خوند الكبرى ولها المكانة المفضلة ، وقاعة رمضان بها خوند الثانية ، والقاعة المظفرية بها خوند الثالثة ، وأخيرا تقيم خوند الرابعة بالقاعة المعلقة . هذا عدا قاعات أخرى عديدة برسم السرارى والجوارى[1] وفيما يتعلق بالسلطان الظاهر بيبرس فقد ذكر كل من أبى المحاسن والمقريزى زوجاته بالترتيب التالى : ابنة حسام الدين بركة خان التترى ، ثم ابنة سيف الدين نوكاى التترى ، ثم ابنة سيف الدين كراى التترى ، وأخيرا ابنة سيف نوغاى التترى[2] . ويبدو أن المؤرخين المذكورين حرصوا على ذكر أسماء زوجات بيبرس وفق ترتيب مكانتهن عند السلطان ، وأن ابنة حسام الدين كانت خوند الكبرى فى حريم بيبرس بدليل أنها كانت أم ولده وولى عهده الملك السعيد بركة خان .

وقد أحيطت كل واحدة من زوجات السلطان بعدد كبير من الوصيفات ، كما خصص لكل واحدة منهن أربعة طواشية

---

(١) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢٦ ـ ٢٧ ، القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٧٥ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٧٩ ، المقريزى السلوك ج ١ ص ٦٤٠ ـ ٦٤١ .

(خصيان) بمثابة حرس دائم لها . ولم يسمح لأحد اطلاقا بالاقتراب من الحريم السلطانى سوى الطواشية [1] .

* * *

رياضة بيبرس وتسليته :

واذا علمنا أن حياة المماليك امتازت بحبهم للرياضة وألعاب الفروسية ، فان ذلك دفعهم الى العناية بتعليم صغارهم استعمال السلاح وركوب الخيل حتى يكون هذا المملوك عدة له وعونا على خصومه . هذا الى أن بقاء الرجل فى مجتمع المماليك كان يتوقف قبل كل شىء على قوته ومهابته فى نظر بقية أفراد المجتمع . لذلك كله اشتهر السلاطين وأمراؤهم بولعهم الشديد بألعاب الفروسية والصيد والرياضة على اختلاف أنواعها « لما فى ذلك من تمرين النفوس على اكتساب التأييد وحصول المسرة بكل ظفر جديد » [2] .

وكان الظاهر بيبرس بالذات من أكثر سلاطين المماليك اهتماما بالصيد وألعاب الرياضة . ولهذا اهتم بيبرس بطيور الصيد وكلابها على اختلاف أنواعها ، فأنشأ لها المطاعم ، وعين لها البازدارية للاشراف عليها والعناية بها . وفى الوقت نفسه عنى بانشاء الميادين والساحات لتكون بمثابة ملاعب كبرى يمارس

---

(1) تاريخ ابن الفرات حوادث سنة ٧٩٧ هـ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٧٩ حاشية ٤ .

(2) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ١٦٦ .

فيها رياضته المفضلة ؛ ومن أشهر الميادين التى أنشأها بيبرس لذلك الغرض ميدان القبق خارج القاهرة [1] . أما ألوان الرياضة التى ورد فى المراجع أن السلطان بيبرس شغف بها ومارسها فعلا فهى الصيد ، ولعب القبق ، واللعب بالكرة ، ورمى البندق .

أما عن سرحات الصيد فكان موعدها الربيع عادة ، عندما يخرج السلطان لممارسة تلك الرياضة وصحبته عدد كبير من الأمراء والمماليك ، وكل من تدعو الحاجة اليه من أطباء وكحالين وأدوية وخيام [2] .. ويبدأ الصيد باطلاق الطير فى الهواء ثم يرمى لها الحب لتهبط اليه ، فى حين يضرب الأمراء حولها جلقة وهى لاهية فى التقاط الحب فيذعرونها بضرب الطبول والسلطان والأمراء مترقبون لصيدها . وبعد أن يأخذ السلطان حظه من صيد الطير ، يتحول الى اقتناص الوحوش ؛ فتعد الخيول وتضرب العساكر حلقة كبيرة واسعة تطلق داخلها النعامات والظباء وبقر الوحوش وغيرها من الحيوانات . وعندما يطاردها السلطان — ومعه الجوارح الصائدة — تموج الوحوش ويستولى عليها الذعر فيكون منظرها مثيرا . وبعد أن يصيد السلطان كفايته منها ، يترك لأمرائه حرية الصيد [3] . ومن الثابت أن السلطان حرص على أن يشمل أمراءه بعطفه فى سرحات الصيد ؛ ومن ذلك ما يرويه المقريزى من أن السلطان الظاهر بيبرس باشر الصيد سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٣م)

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ١٨٠ ، ٣٢٤ ـ ٣٢٥ .

(٢) المقريزى المواعظ ج ٣ ص ٣٢٥ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ١٦٧ ، ١٦٩ ـ ١٧١ .

واستمر فى الصيد منذ أن غادر القاهرة فى تلك السنة الى أن دخل غزة . وفى العريش « ضرب (بيبرس) حلقة بثلاث آلاف فارس ، فوقع فيها صيد كثير جدا » . وقد حدث أثناء الصيد أن سقط عن فرسه كل من الأمير شمس الدين سنقر الرومى والأمير سيف الدين قلاون ، فأسرع السلطان بيبرس اليهما — واحدا بعد الآخر « وجعل رأسه على ركبته » وأسعفه بالعلاج [١] .

أما لعب الكرة ، أو الاكرة — وهى اللعبة المعروفة الآن باسم بولو — فكان لها شأن كبير عند المماليك ، اذ شغف بها سلاطينهم وأمراؤهم ، وأنشأوا لها الميادين ، كما وضعوا لها نظاما خاصا وحددوا أوقات وحفلات تلعب فيها . هذا الى أن سلاطين المماليك أعدوا لهذه اللعبة ما يلزمها من خيول وأدوات ، وخصصوا موظفين من المماليك يشرفون عليها يسمى الواحد منها جوكندار ، أى الذى يحمل الجوكان وهى عصا مدهونة طولها نحوا من أربعة أذرع ورأسها خشبة مخروطة محدودبة تنيف على نصف ذراع [٢] .

وقد شاهد الرحالة تافور سلطان المماليك وأمراءه وهم يلعبون هذه اللعبة ، فقال ان الميدان الفسيح الذى لعبوا فيه كان مقسما ومخططا بخطوط بيضاء ، وعلى جانبى الميدان عدد كبير من فرسان المماليك بيد كل منهم عصا طويلة ، وفى وسط الميدان كرة . ويكون اللعب بأن يحاول كل فريق اجتذاب الكرة الى جانبه ، والذى ينجح

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٨٠ — ٤٨١ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٤ حاشية ١ .

فى ذلك تكون له الغلبة (١) . وجرت العادة أن يقوم المهزوم فى اللعب بعمل وليمة حافلة ربما وصلت تكاليفها مائتى ألف درهم لكثرة ما يقدم فيها من لحوم وطيور وحلوى ومشروبات . وفى بعض الأحيان يتحمل السلطان نفقات هذه الوليمة — رغم كونه منتصرا — ليخفف عن الفريق المهزوم . كذلك اعتاد سلاطين المماليك عند الخروج للعب الكرة أن يفرقوا حوائص من الذهب على بعض كبار الأمراء (٢) . ومن ذلك ما فعله السلطان بيبرس عندما لعب الكرة سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢) ، اذ « خلع على الأمراء ، وأعطى الأتابك ثلاثة آلاف دينار ، وأعطى الأمراء على حسب مراتبهم » (٣) . والواقع ان اللعب بالكرة كان من الرياضيات المفضلة عند السلطان الظاهر بيبرس ، حتى انه لم يكد يستقر فى عرش السلطنة حتى « تابع الركوب الى اللعب بالأكرة » (٤) .

ومن الألعاب الرياضية التى شغف بها السلطان الظاهر بيبرس أيضا رمى القبق . وتفصيل هذه اللعبة هو أن تنصب خشبة عالية فى ميدان اللعب ويعمل بأعلاها دائرة من خشب ، وتقف الرماة بقسيها وترمى بالسهام جوف الدائرة لكى تمر من داخلها

---

(١) Tafur : Travels. p. 80.

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ٣٢٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٢ — ٥٥ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٩٩ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٤ .

الى هدف معين ، وذلك تمرينا لهم على احكام الرمى[1] . وأحيانا يكون بدل هذه الدائرة شكل قرعة عسلية — واسمها بالتركية القبق — من ذهب أو فضة ويكون فى القرعة طير حمام . ثم يأتى اللاعبون للمباراة فى رمى الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل ، فمن أصاب منهم القرعة أو أطار الحمام حاز السبق وأخذ القرعة المعدنية نفسها [2] . وكان السلطان الظاهر بيبرس يلعب القبق فى ميدان العيد — وهو الذى عرف أيضا بالميدان الأسود — تحت القلعة ، ويشجع أمراءه ومماليكه على لعب الرمح ورمى النشاب ، حتى انه كان ينعم على كل من أصاب القبق من الأمراء بفرس « بسرجه ولجامه وتشاهيره بالمراوات الفضة وغيرها » ، كما كان ينعم على من أصاب القبق من المماليك والأجناد بالخلع [3] . واعتاد المماليك السلطانية عند رمى القبق ارتداء أجمل العدد والخوذ والآلات والسلاح الكامل ، وعندئذ يخرج أهل القاهرة من الرجال والنساء للفرجة ، فتنصب السوقة لهم عدة صواوين فيها أنواع البقول والمآكل والمشارب [4] .

وكثيرا ما انتهى أمر لعبة القبق الى الطعان بالرماح أو بالدبابيس أو بالسيوف ، فينقسم اللاعبون الى فريقين عقب

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٣ ص ١٨٠ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥١٨ حاشية ٦ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥١٨ ، ٦٢٦ ، العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٧٥ هـ (مخطوط) .

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٣ ص ١٨١ .

لعب القبق ويأخذون فى المبارزة والطعان « فلا يرى النـــاس الا سيوفا تبرق » [1] . وكان الظاهر بيبرس يستغل تلك الفرصة ليستعرض أمام الناس مهارته فى استخدام الرمح « حتى تعجبوا (الناس) من فروسيته » . ويروى المقريزى فى حوادث سنة ٦٧٥ هـ كيف نظم السلطان بيبرس حلقة من حلقات المبارزة عقب الفراغ من لعب القبق ، فقسم العسكر فريقين فى الميدان الأسود تحت القلعة « واصطدما وتطاعنت الفرسان . وكان السلطان بينا يراه الناس آخرا قد شاهدوه أولا ؛ وهو لا يسأم من الكر والفر . وشاهد الناس منه ومن الملك السعيد ما يبهر العقول . وتواصل الطعن بغير جراح ، والسلطان بين تلك الصفوف لا يخاف ! » [2] .

كذلك شغف السلطان الظاهر بيبرس برمى البندق ، فيذكر المقريزى فى حوادث سنة ٦٦٣ هـ أن بيبرس سار الى العباســة بالشرقية « ورمى البندق » . والبندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها وترمى به الطيور لصيدها . وكان لرمى البندق شأن كبير فى العصور الوسطى بمختلف البلدان ومنها مصر ، حتى ان خط البندقانيين بالقاهرة ينسب الى صناعة البندق . وثمة أهمية أخرى لتلك الاشارة التى ذكرها المقريزى ، وهى أن بيبرس عندما خرج لرمى البندق فى تلك السنة « ادعى له جماعة ، منهم الأمير فخر الدين عثمان ، ابن الملك المغيث صاحب الكرك » . وتفسر لنا هذه العبارة وضعا من الأوضاع

---

(١) تاريخ ابن الفرات ج ١٣ ص ١ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٢٦ .

التى كان معمولا بها فى دوائر الصيد فى تلك العصور ، هو أن المبتدىء لا يصير فى زمرة هواة هذا الفن الا بعد أن ينتسب أو « يدعى » لأحد رماة الصيد القدماء سواء كان سلطانا أو أميرا أو غير ذلك [1] .

والى جانب الألعاب الرياضية السابقة ، أحب السلطان بيبرس أن يقوم أحيانا بنزهة نيلية ، فكان يركب سفينته ويقصد جزيرة الروضة لقضاء بعض الوقت . وكان بيبرس يأمر أحيانا باحضار الشوانى والسفن الحربية لتقوم أمامه على صفحة النيل بمناورات واستعراضات بحرية « على هيئة محاربتها العدو فى البحر » [2] . كذلك عرف عن بيبرس ولعه العظيم بالسباحة لمسافات طويلة ، حتى انه سبح مرة فى النيل وهو يرتدى ملابس الحرب ويسحب خلفه بعض أمرائه جالسين على عوامة مسطحة ! [3] .

* * *

الحياة الرسمية فى بلاط بيبرس :

أما عن الحياة الرسمية فى بلاط بيبرس فقد اتصفت بالتعقيد ، وأحيطت بمختلف مظاهر التفخيم والتعظيم ، فأحاط بالسلطان عدد

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٢٣ ـ حاشية ١ للدكتور محمد مصطفى زيادة .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٥١ ، ٥٧٧ .

(٣) Lane-Poole : A Hist. of Egypt p. 258.

كبير من الأمراء أرباب الوظائف لكل منهم رتبته ولقبه ومنزلته الخاصة .

وقد جرت العادة أن يخرج السلطان صباحا من أحد قصوره « الجوانية » الى القصر الكبير ، حيث يجلس على تخت الملك ، ويدخل عليه خواصه وأمراؤه ، أما الغرباء فليس لهم عادة بحضور هذا المجلس الا فى حالة الضرورة . ويظل السلطان بذلك القصر حتى الساعة الثالثة من النهار ، ثم يدخل بعدها الى أحد قصوره الأخرى للنظر فى مصالح ملكه ، وعندئذ يحضر اليه أرباب الوظائف مثل الوزير وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش لعرض شئون الدولة عليه [1] . وبعد ذلك يدخل الأمراء على السلطان « للخدمة السلطانية » ، أى تقديم فروض الولاء وعرض بعض أمور الدولة عليه . فاذا دخل الأمراء على السلطان فانهم يبدأون بتقبيل الأرض اظهارا للولاء والخضوع . ويذكر المقريزى أن هذه العادة الخاصة بتقبيل الأرض أدخلها المعز أول الخلفاء الفاطميين بمصر ، وظلت قائمة بعد ذلك لا يعفى منها وزير أو أمير أو مملوك حتى أبطلها السلطان برسباى سنة ٨٢٥ هـ [2] .

وثمة اشارة ذكرها المقريزى فى مستهل سنة ٦٦٢ هـ خلاصتها أن السلطان الظاهر بيبرس استفتح تلك السنة بالجلوس فى دار العدل . والواقع ان الجلوس فى دار العدل كان من وظائف الملك الأساسية فى تلك العصور ، اذ كان على السلطان أن يخصص يوما

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٤ .
(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٣ ص ٣٥٢ .

أو أكثر فى الأسبوع للنظر فى المظالم ، وهى القضايا التى لم يرض أصـحابها بأحكام القضاة فيها فرفعوها الى السلطان من باب الاستئناف ، أو القضايا التى اختص السلطان بالنظر فيها مباشرة . وكان السلطان يجلس عندئذ فى الايوان الكبير على كرسى من الخشب المغشى بالحرير وحوله القضاة وأكابر الأمراء المتقدمين فى السن ، وهم أمراء المشورة . ثم تقرأ القضايا على السلطان ، فما احتاج منها الى مراجعة القضاة شاورهم فيها ، وما تعلق بالعسكر تحدث فيه مع الحاجب وناظر الجيش ، ويأمر فى الباقى بما يراه (١) .

ومن المواكب السلطانية داخل القلعة كذلك موكب الاسطبل ، والغرض منه النظر فى شئون الأمراء والمماليك والاقطاعات . وفى هذا المجلس يجلس السلطان فى صدر المكان وحوله الأمراء مقدمو الألوف يمينا ويسارا على مقاعد من حرير ، ولا يحضر القضاة هذا المجلس . وبعد أن يقرأ ناظر الجيش ما يتعلق بالاقطاعات يمضى السلطان منها ما يشاء ، ثم يدخل كاتب السر ويقدّم العلامة فيعلم السلطان ما أمضاه . وأخيرا يدخل الجيش طائفة بعد أخرى لتقديم واجب الولاء واظهار الطاعة للسلطان ، ثم يمد سماط كبير عند انتهاء هذا الموكب (٢) .

وثمة مواكب سلطانية خارج القلعة ، منها الخروج للصيد

---

(١) السيوطى : حسـن المحـاضرة ج ٢ ص ١٠٩ ــ ١١٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٤ ــ ٤٥ .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٦ ــ ٨٧ .

أو للعب ، وموكب العيدين : الفطر والأضحى ، وموكب كسر الخليج .. وفيها اعتاد سلاطين المماليك أن يخرجوا بشعار السلطنة . وقد خرج السلطان الظاهر بيبرس أول مرة بعد توليه الحكم بشعار السلطنة سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) ، فاتجه من قلعة الجبل الى خارج القاهرة ، ثم دخل من باب النصر « وقد زينت القاهرة ونثرت الدنانير والدراهم على السلطان ، وخلع على الأمراء المقدمين وسائر أرباب الدولة » [١] . وكانت أجمل المواكب التى يخرج فيها السلطان بشعار السلطنة هى المواكب الخاصة بصلاة أحد العيدين : فيركب السلطان وعلى رأسه العصائب السلطانية ، وهى رايات صفر عليها ألقاب السلطان واسمه مطرز بالذهب ، فى حين ترفع على رأس السلطان المظلة — ويعبر عنها بالجتر — وهى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب ، وفى أعلاها طائر من فضة مطلى بالذهب ، ويحمل المظلة بعض أكابر الأمراء . ويسير أمام السلطان أحد الركبدارية رافعا الغاشية على يديه يلفتها يمينا وشمالا حتى يخالها الناظر أنها مصنوعة من الذهب . ويركب الجفتاوات أمام السلطان ، وهما اثنان من أوشاقية الاصطبل السلطانى ، متقاربان فى السن ، عليهما قباءان أصفران من حرير ، وعلى رأسيهما قبعتان من زركش ، ويركبان فرسين أشهبين [٢] . وعن يمين السلطان يمشى الجمقدار يحمل دبوسا له رأس ضخم ويكون نظره متجها الى السلطان من أول خروج الموكب حتى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ ـ ٨ .

نهايته . وعلى هذه الصورة يسير الموكب السلطانى متهاديا بين زغردة النساء ودعاء الرجال [1] . وهكذا اتصفت المواكب الرسمية فى عهد بيبرس بأقصى ما يمكن أن تتصف به من مظاهر الفخامة والعظمة .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٦٦ حاشية ٣ .

خاتمة

وأخيرا مات السلطان الظاهر بيبرس فى ٣٠ يونية سنة ١٢٧٧ (٢٨ المحرم سنة ٦٧٦ هـ) بعد أن جاوز الخمسين من عمره ، وحكم سبع عشرة سنة وشهرين واثنى عشر يوما .وكانت وفاته فى دمشق فدفن قرب داريا حسب وصيته .

وقد تواترت فى المراجع روايتان حول موت بيبرس ، الأولى أنه عاد من أنطاكية الى دمشق فى تلك السنة ، وكان فى حالة غير عادية من السرور والفرح « وتناهى سعده » ، فأكثر من شرب القمز . فلما انقضى المجلس أحس بتوعك شـديد فى جسـمه ، وأصبح يتقيأ ويشكو حرارة فى باطنه ، واستعمل دواء لم يكن عن رأى طبيب ، فلم ينجح وتزايد ألمه ، حتى وصل الأطباء فأنكروا عليه أستعمال ذلك الدواء . على أن علاج الأطباء لم يفلح هو الآخر ، فتزايد به الاسهال والقيىء « وتضاعفت الحمى ورمى دما — يقال انه كبده — فعولج بجواهرومات »[1] .

وثمة رواية أخرى أكثر تفصيلا حول وفاة بيبرس ، ذكرها كل من قطب الدين اليونينى وبيبرس الدوادار ، ونقلها عنهما المقريزى وأبو المحاسن . وخلاصة هذه القصة أن الملك الظاهر

(١) مفضل ابن أبى الفضـائل : النهج السـديد ص ٢٧٧ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٣٥ . والقمز نوع من الخمر يصنع من لبن الخيل .

بيبرس كان مولعا بالنجوم مصدقا لما يقوله المنجمون ، فتخوف على نفسه عندما قال المنجمون ان رجلا جليل القدر يموت بمدينة دمشق بالسم فى سنة ست وسبعين . وزاد من مخاوف بيبرس أن القمر خسف بأكمله مما اتخذ دليلا على صدق ما تنبأ به المنجمون . وكان أن فكر السلطان فى صرف الموت عن نفسه الى غيره ، وكان معه بدمشق عندئذ الملك القاهر ابن المعظم عيسى الأيوبى ، وقد حقد عليه بيبرس لأنه أبلى فى الحملة على بلاد الروم بلاء حسنا جعل الناس تشيد به وتلهج بما فعله . لذلك دبر السلطان بيبرس مكيدة لقتل الملك القاهر عن طريق دس السم له ، فأعد السم فى ورقة فى جيبه دون أن يشعر به أحد ، ثم دعا الملك القاهر للشرب معه . وكان للسطان ثلاثة أقداح مختصة به مع ثلاثة سقاة ، لا يشرب فيها الا من يكرمه السلطان . فلما قام الملك القاهر لقضاء حاجته ، جعل السلطان السم الذى أعده فى قدح وأمسكه بيده ، حتى اذا ما عاد الملك القاهر ناوله اياه « فقبل الأرض وشرب جميع ما فيه » غير أن الظروف شاءت أن يقوم السلطان بعد ذلك لقضاء حاجة ، فأخذ الساقى القدح من يد الملك القاهر وملأه على العادة دون أن يدرى بما وضعه السلطان فيه من سم . فلما عاد السلطان تناول ذلك القدح عينه وشرب ما فيه ، وهو لا يعلم أن به بقايا السم . وهكذا لم يلبث الظاهر بيبرس أن أحس بالألم ، ولم يثمر معه علاج الأطباء حتى مات بعد ثلاثة عشر يوما من ذلك الحادث[1] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٧٥ ـ ١٧٧ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٣٥ ـ ٦٣٦ .

ويرجح أبو المحاسن صحة هذه القصة فيقول بعد سردها « وهذا القول مشهور وأظنه هو الأصح فى علة موته » .

على أن ذكرى بيبرس العاطرة وبطولته النادرة وشجاعته فى مواصلة الجهاد ، جعلت المؤرخين كافة يترحمون عليه ويشيدون بكفاحه حتى اختتم المقريزى الكلام عنه بتلك العبارة : « وبالجملة فلقد كان من خير ملوك الاسلام » . ولا أدل على مكانة بيبرس فى قلوب معاصريه من الأثر الذى تركه خبر وفاته فى أهل مصر والشام جميعا . وقد رثاه محيى الدين بن عبد الظاهر بقصيدة تعبر عن شعور المعاصرين نحوه ، نكتفى منها بالأبيات الآتية :

لهفى على الملك الذى كانت به الد
نيا تطيب فكل قفر مَنْزل
الظاهر السلطان من كانت له
منن على كل الورى وتطول
لهفى على تلك العزائم كيف قد
غفلت وكانت قبل ذا لا تغفل
سهم أصاب وما رمى من قبله
سهم له فى كل قلب مقتل

المراجـــــع

(اكتفى المؤلف فى القائمة الآتية بأسماء الكتب التى ورد ذكرها فعلا فى حواشى الكتاب ، وراعى الترتيب الأبجدى لأسماء المؤلفين فى سردها) ٠

---

١ ـ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٠

٢ ـ ابن الأخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ٠

٣ ـ ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ٠

٤ ـ ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار ٠

٥ ـ البلاذرى : فتوح البلدان ٠

٦ ـ البلوى المغربى : تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق ٠

٧ ـ ابن حجر : انباء الغمر بأنباء العمر (مخطوط) ٠

٨ ـ ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ٠

٩ ـ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ٠

١٠ ـ ابن خلدون : المقدمة ٠

١١ ـ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٠

١٢ ـ خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك.

١٣ ـ الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ٠

١٤ ـ رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ٠

١٥ ـ زكى محمد حسن : فنون الاسلام ٠

١٦ ـ زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتصـــاوير الاسلامية ٠
١٧ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرس والحروب الصليبية ٠
١٨ ـ سيرة الظاهر بيبرس ٠
١٩ ـ السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ٠
٢٠ ـ السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ٠
٢١ ـ ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ (مخطوط) ٠
٢٢ ـ ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ٠
٢٣ ـ عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى ٠
٢٤ ـ على مبارك : الخطط التوفيقية ٠
٢٥ ـ العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ٠
٢٦ ـ العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (مخطوط) ٠
٢٧ ـ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ٠
٢٨ ـ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ٠
٢٩ ـ القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشا ٠
٣٠ ـ القيروانى : المونس فى أخبار افريقية وتونس ٠
٣١ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٠
٣٢ ـ محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ٠
٣٣ ـ مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ٠
٣٤ ـ المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ٠
٣٥ ـ المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ٠

٣٦ ـ المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة .
٣٧ ـ المقريزى : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب .
٣٨ ـ نظير حسان سعداوى : نظام البريد فى الدولة الاسلامية .
٣٩ ـ النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب (مخطوط) .
٤٠ ـ ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب (مخطوط) .

---

41) Dopp : Le Caire Vu par les Voyageurs Occidentaux du Moyen age.

42) Grousset : Hist. des Croisades — Tome 3.

43) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land.

44) Lane : Manners and Customs of Modern Egyptians.

45) Lane-Poole : A Hist. of Egypt in the Middle Ages.

46) Muir : The Mamluke or Slave Dynasty of Egypt.

47) Paul Kahle : The Arabic Shadow-Play in Egypt.

48) Tafur : Travels.

49) Van Berchem : Titres Califiens.

50) Wiet : L'Egypte Arabe.

فهرس الكتاب

صفحة

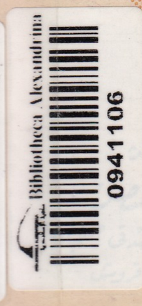


أعلام العرب
الكتاب القادم

ابن الفارض

للدكتور
محمّد مصطفى حلمى

يصدر فى ٧ مارس ١٩٦٣



مطبعة مصر